: ملتقى العلمية : الأولى

المنهج وتمت ، فيالسنا الهالك ملتقى أن!

ملتقى في اللسانيات العربية الحديثة المدأ في قبولنه

المتقين لمح فتحهلك ، فيحلمس الهالك سيا

، ملتقى إلا الخطاب منه ع نيتحلبا نه يشكلا

لمح الخطاب رتبا فعيسا ت الخطاب فلياع تنال

إلا أن » لمح شيء ، ملتقى إلا العلقا يخعي

فيالجد الهمه هيلنا نهكي أن إلا و يي ملقا

لمحلك نه ديي يمحا نه علد ع أ ، فقالف

المتعي لسيملد الأولت نكي إلا ، فيالسنا الهالخ ملتقى الأولتة ... [1]« ملتقى فيلمعه

الهيمالا ي اللسانيات الأولسا نه لينه ، ملتقى وحبحي لهكلك نه رتبا فتالقلا ع الملحمالا

. فلعمالا وحيج ولد ، نالسنا الهاليه في ليعينه لا هلس وحبحي شلاف نه يحا إلا

فينة الهمه ، العلقا يخعي ملند فيملقنا فيلمعلا الهمه تنال ملقا

لنبالجدا يتي أن و للعتسا أن إ ريدنا ، وحولجا إليطا نه و اوالي يخنة ، فلمه

الهمه ملنه لنعنقي لا هذا لمح هي فقيقه فقيعه لنا وملقي لا هذه ، ديشال

لهند يبعتلا فيقيقه فقا العجا نه يحعي فيلمد ريه : ريدأ الجد فيملقنا فيلمعلا

في فيتالنا رتفالما ع ، داهمالا الخلة ع ، يسلفتا العلعتا فنيه ع أن نه يكلا

ملقلنا نه نمح لا ب.ن لهملقي رتبا الهمه وحبحة الكلمه ع ، شلاف

ملقلنا ع ، فيطا فحسنالا ولحقي أن نه فيلمعلا يلجي ريحس و ايه هذا

... « ملامه » شلاف ع ملاع ملند يهم ...«يكلس » ي يسنيس و ريه ملند

ملقلناف [2]«هتبكلم ليبا هقيلمه ليبا نلخلي يهمه لحم» ملايال نه ملند يهم

هذا ، ملعم هتليه في (ولمسم هيلد هذا رلمه) ياهسا الهبح أن البتدلي فقالعلا

. هذا هنيم هتيفعه بسلح ع ريلالا بسطا إلا رتبالك ريه

ملقاع ة فيهته ريهكلسالا ملقتعلا في قدلفشا بسلك قيبلة قيالكمام

يالنا ف يلحا أن وه دالنام دلعلا و لمح نه لمهاهتا لحم يش يفيه إلا قفلنا

. ليختمه نيالا إلا ة ريمه ، يهخ قيلمعلا في

ليسمته لسقيلك تنقش قيهبنا قمسلا أن إلا لسعا ، يهخالا في

لسلك كلاش تشلحتسا لمنيه ، قيهكلسالا لتليقد وه لمفلتمع لمحسنه

يهقالما لنلك نيي ريأ ، تنيه و ملاع ريه و علا نيي لمهاهتا الكشأ نه

لسيحتا نه لعيا قيدلبالا قيلمعلا تفلنأع ، ليختمه يخآ إلا لعم ريعلا

. قلبلك تالنخفع لقلآ ع يتخا

وجالما

(1) - ريه: 1911. 2 ملتحد ، نيملك نيا ريخ ، عالما ملبد نيي نه شاهلا ي ي ع عالما قيعي 170

(2) - ريه: 357. 1 ملتحا ، ي الهيسا سفسيي ، قيهبنا وحالملا قياليهسا قد يمعلا

(3) - ريه: 180 . ، نيملك نيا ريخ ، عالما ملبد نيي نه شاهلا ي ي ع عالما قيعي

(4) - ريه: 1982 ، 2 ت.ن.ي.ي ، ت اليحلك ليمطا ملبد ، ي الينا ريسيه يمه يأ 343-344

(5) - ريه: 356. ، ت اليحلك ليمطا ملبد ، ي الينا ريسيه يمه يأ

(6) - ريه: 125. ، نيملك نيا ريخ ، عالما ملبد نيي نه شاهلا ي ي ع عالما قيعي

(7) - ريه: 170. ، نيملك نيا ريخ ، عالما ملبد نيي نه شاهلا ي ي ع عالما قيعي

(8) - ريه: 1978 ، ت.ن.ي.ي ، وهيسة قالنا ملبد ، ف يهتا ع ي العثا نالمه ا ملبد 110

(9) - ريه: 342. ، ت اليحلك ليمطا ملبد ، ي الينا ريسيه يمه يأ

(10) - ريه: 150. ، ت اليحلك ليمطا ملبد ، ي الينا ريسيه يمه يأ

(11) - ريه: 163. ، نيملك نيا ريخ ، عالما ملبد نيي نه شاهلا ي ي ع عالما قيعي

(12) - ريه: 382. ، ت اليحلك ليمطا ملبد ، ي الينا ريسيه يمه يأ

من خلال هذه الصور ، هو شخصية خرافية تخلـب أنفسنا، وتلهب عواطفنا، و تأسر خيالنا ، لكنها صورة إذا ما عرضت على العقل ، أصبحت مضحكة ، ساذجة ، فيصبح الناقد شخصا غريبا عنا ، لا نشك في وجوده و يغدو النقد عملية غامضة ، تشبه الطقوس الكهانوتية ، التي لا يعرف سرها إلا الكهنة القائمون بها .

إن البحث عن شرعية النقد تتجاوز البحث عن ماهيته، ومنهجه و وظيفته بل إنها الأصل الذي منه تكتسب كل محاولة لدراسة النقد و أو التنظير له شرعيتها فوجود النقد لا يقترن فقط بوجود العمل المنقود ذلك أن هذه يجعل من النقد تابعا،أو فرعا من فروع المعرفة الثانوية التي يمكن الاستغناء عنه على الرغم مما قد يقدمه لنا من الخدمات حول الأعمال المنقودة ، لأن لذت اللقاء المباشر مع النص تتجاوز كل الوسائط الأخرى التي يمكنها الوقوف جسرا بيننا وبين النص،وحين يرتبط النقد بالوجود الإنساني ، فإن الأمر هنا يختلف، لأن النقد يصبح جزء من الإنسان الذي لا يمكنه التخلي عنه،لأن وجود الإنسان لا يكتمل إلا به، فالنقد حسب الجرجاني يوجد العدل و العدل هو أساس الوجود ،فالله أوجب العدل على نفسه،وجعل العدل سنة تقوم عليها شؤون الإنسان كلها،بل وشؤون الكون

والبحث في النقد عند الجرجاني ، ينطلق من هذا البعد العميق للظاهرة النقدية فالنقد عنده ليس بالعمل السطحي الثانوي ، بل هو عمل أصلي وأساسي ، إن لم يكن عملا مقدسا . لأن به تتحقق العدالة ، التي هي رأس الحياة الإنسانية ، وروحها ، والتي يأخذ الإنسان

بها بعده الحقيقي وبها يصبح خليفة في الأرض ، ولعل هذا المفهوم استوحاه الجرجاني من الصورة التي أعطاها للناقد ، إذ الناقد عنده قاض يحكم بين الناس وهذه الوظيفة من صميم الدين الإسلامي ، إن لم تكن من وظائفه الأساسية ، لذا فإن لها مكانتها الرفيعة والمقدسة و يرتبط وجود النقد بالوجود الإنساني من خلال فكرتين هما :

1 - فكرة النقص الإنساني .

2 - فكرة النسب .

1- فكرة النقص الإنساني :

يقول فرانسيس كريك F. Crick بعد عرضه للمشاكل التي تعرض الإنسان حين يريد قياس أبعاد الكون المسافية ، والزمنية ، وبعد أن يعرض للمقاييس المستعملة في هذا المجال : « فإذا عدنا مرة أخرى لمراجعة هذه المقاييس المتباينة جدا – الحجم بالغ الدقة للذرة - والحجم الذي لا يمكن تخيله للكون، ومعدل النبض في التفاعلات الكميائية مقارنا بصحراوات الأبد اللانهائي منذ نشأة الكون- إذا ما عدنا لهذا فإننا سنلاحظ في كل هذه الأمثلة أن حدسنا الشخصي- الذي يرتكز على خبرتنا في الحياة اليومية - سيكون في أغلب الظن مضللا للغاية »[3] .

فمن طبيعة الإنسان النقص، والإنسان الخاضع لحدود الزمان والمكان هو كائن مقيد، ليس له أن يتجاوز الحدود المرسومة له، ولا أن يخرق القوانين التي وضعت له ليسير وفقها، فالله قد وضع « لكل شيء قدر » (ص4) واختص وحده بالكمال، واتصف به، وليس للإنسان أن يدرك الكمال، حتى إن بذل من الجهد ما بذل، والنقص الإنساني، هو نقص شامل لكل

جوانب الإنسان فهناك نقص في الجسم المادي، وفي العقل المدرك والحاسة المشاهدة، والذاكرة الحافظة، فلذلك فالجر جاني لا يهدف من عملية النقد « الشهادة لأبي الطيب بالعصمة » (ص416). لأن العصمة ليست من طبع الإنسان، إنما طبع الإنسان النقص ، والنقص أصل الخطأ فلا يمكن إذا إدعاء الكمال لأي إنسان، سواء أكان من القدماء المتقدمين،أو من المحدثين المتأخرين لأن«الخلقة مبينة على السهو وممزوجة بالنسيان»(ص4) فالخطأ عام في الإنسان ، والأدلة على السهو قائمة في الواقع تشهد عليها التجربة الشخصية ، والمعاينة اليومية.

ونتيجة لهذا النقص المتمكن في طبيعة الإنسان، فإن حدود معرفته تكون محدودة، لا يمكن أن تستوعب كل المعرفة الموجودة، لأن الإحاطة بكل العلم أمر ليس من خلقة الإنسان، فالأحكام المطلقة المعممة التي يطلقها بعض النقاد على عمل من أعمال الأدباء ، سواء بالإيجاب، وذلك بادعاء السبق والابتكار أو بالسلب بادعاء السرقة، والأخذ، ليست إلا أحكاما منافية لروح العلم، ومخلة بشرط البحث، بخاصة في مجال مادته ليست بالمحددة، أو بالمادة التي يمكن الاستغناء فيها بالعينات المحدودة، فيقوم الجزء فيها مقام الكل وإنما هي مادة واسعة، تمتاز بأن لكل عنصر فيها شخصيته المستقلة ولكل نص فيها كيانه الذاتي، الذي لا يمكن أن يحل محله نص آخر، أو أن تجري عليه القوانين جريا مطلقا، ولهذا يقول الجرجاني عن نفسه، إني لم أدع « الإحاطة بشعر الأوائل والأواخر بل لم أزعم نصفته سماعا وقراءة فدع الحفظ والرواية ،ولعل المعني الذي أسمه بهذه السمة... في صدر ديوان لم

أتصفحه، أو لم أعثر بذلك السطر منه ، أو عساني أن أكون رويته ثم نسيته أو حفظته لكني أغفلت وجه الأخذ منه وطريقة الاحتذاء به » (ص160).

فعلم الإنسان، ومعرفته مقيدان بقيود كثيرة، فطاقة الإنسان لاتصل إلى درجة الإطلاع على كل ما يتصل بتخصصه، ومجال بحثه – على الأقل – بل إن الكم الذي يعرفه الإنسان، ويحيط به لا يسلم من الشوائب التي هي جزء من تكوين الإنسان، وداخلة في تركيبة عقله، فالإنسان عرضة للنسيان،فهو يضيع أكثر مم يحفظ، لأن للذاكرة حدودها وشروطها فـ : « لتحصيل المعلومات وتثبيتها في الذهن شروط عديدة بعضها خاص بمادة التحصيل وبطريقة تحصيلها وهي الشروط الموضوعية وبعضها الآخر خاص بالشخص المحصل وهي الشروط الذاتية »[4].

فالعمر ومستوى الذكاء والنمو العقلي ، وتكرار الشيء ، وطبيعته كلها عوامل تلعب دورها في ذاكرة الإنسان، وفي مقدرتها على الاستيعاب ثم إن درجة الانتباه والتفطن تلعب دورا في عمليات الإنسان العقلية، فكثيرا ما تمر بنا النصوص ، فلا ننتبه لأجزاء منها ،أو للفظة منها ،فتأتي أحكامنا مخالفة لما في النص ، أو متجنية عليه ، فالإنسان يظل«طالبا طوال حياته »[5] يراجع معلوماته دوما ليثبت منها ما قد يعتريه النسيان وليجدد ما قد تجاوزته الأحداث ، و أثبتت الدراسات الجديدة خطأه ، و على الإنسان أن يواكب البحوث ، و المستجدات وأن يصبح البحث « عادة تشغل جزءا منتظما من حياته»[6] بخاصة إذا ما علمنا أن الكم المعرفي يزداد بطريقة مذهلة، تجعل الباحثين يحاولون جهدهم للحاق بهذا الكم من النصوص ،و الدراسات لكنهم كثيرا ما « يمرون بسرعة على أغلب المواد ،ولا يقرؤون بإمعان سوى

الموضوعات التي تهمهم »[7] مما يجعل إدعاء الإحاطة و الاستيعاب الدقيق للمعارف أمرا غير وارد ، وأن كل باحث يحترم نفسه ، ويحترم روح العلم لا يمكنه إدعاء مثل هذه الفكرة« و لهذا السبب أحظر على نفسي و لا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة »(ص215) ، أو غيرها من الأحكام ومن هنا فأحكام النقاد ، أو الناس عامة ، وفي كل مجالات المعرفة و الحياة أحكام نسبية غير جازمة، فهي عرضة للخطأ والزلل، لذلك فالجرجاني يرى أنه حين يقبل على إصدار كم من الأحكام ، إنما ذلك يأتي « انقيادا للظن واستنامة إلى ما يغلب على النفس ، فأما اليقين الثقة والعلم و الإحاطة فمعاذ الله أن أدعيه ، و لو أدعيته لوجب ألا تقبله »(ص160) لأن قبوله خرق لقاعدة أساسية و سنة راسخة هي : أن المعرفة الإنسانية محدودة ، وأن الإنسان ناقص ، لكن بطبعه يريد أن يضع أمام عينيه حقائق يطمئن إليها، ويسكن نفسه لها هذا الاطمئنان ، والسكون يخلصان الإنسان من حيرة البحث ، هذه الحيرة الناتجة عن أن الإنسان عاجز بطبعه عن إدراك الحقيقة إدراكا كاملا،فهو لذلك يتوهم الحقيقة في أشياء بعينها، و آراء بذاتها ،فيتبناها ، و يؤمن بها و يركن إلى اتخاذها قاعدة يقيم عليها علمه، ووتدا يقيد إليه معرفته ، و معلما يهتدي به في بحر هذا الوجود لا متناه ، والسحيق الأغوار ، لكن يجب على الإنسان أن لا يتغافل عنه ، هو أن كل هذا ليس إلا تغليبا للظن و إتباعا لما يستأنسه من نفسه ، وإنما ما يراه ويعتقده ليس حجة تلزم غيره ، بل هي لا تلزمه هو نفسه ، فله الحق في أن يغير هذه الأمور التي يركن إليها حين يرى أن في ذلك اقترابا من الحقيقة

و بأن ما كان يعتقده و يثق فيه قد بان نقصه و أتضح عيبه و خطر الأخذ به و الارتكاز عليه .

وشعور الإنسان بالنقص يعد من جهة أخرى سببا في ما يصدر عنه من سلوكات ، ذلك أنه يوجد في الإنسان القلق ، بخاصة حين يقارن نفسه بمن هم ، في نظره أحسن حالا ، وأفضل موقعا ، ولعل الصورة التي قدمها الدكتور دفيد – ف –شيهان D.V.Sheehan مثال واضح للإضطراب الذي يحدثه الشعور بالنقص في الإنسان :

« كانت ماريا تعرف أن هناك نساء كثيرات يعشن للعمل ويؤثرن عدم إنجاب الأطفال ولكنها كانت تعلم تماما إنهن اللائي إخترن ذلك أيضا قد قيدت إختيارها بصورة شديدة وشعرت أنها مبتورة الصلة بشيء ما وكأن شيئا ينقصها وإنها فارغة نتيجة لذلك وخصوصا حين تكون مع صديقاتها المتزوجات مصاحبات الأطفال أنهن استكملن فيما يبدو حياتهن بطريقة ما »[8].

فماريا هنا ،تقدم لنا نموذجا من الشعور بالنقص الذي إنتابها من خلال المقارنة بينها وبين الأخريات ، حيث أنها ترى نفسها ناقصة وهذا النقص يتجسد في هذا الفراغ الذي تحسه في داخلها أي فراغ الرحم من الأطفال هي ترى نفسها مقيدة ومنقوصة الحرية لأنها لا تستطيع أن تحدد مصيرها وموقعها ، وهي ترى أن رفضها للإنجاب لم يكن عملا حرا نابعا من اقتناعها الشخصي ، مثل ما هو الشأن بالنسبة للأخريات ، بل هو أمر محتم عليها ليس لها خيار فيه ، وشعور ماريا بالنقص قد انتابها من الجهل ، ذلك أنها لم تستطيع أن تفهم سلوكها ، و الطبيعة التي تحملها ، فشعور الإنسان ينبع من

استبطانه لنفسه هذا الاستبطان الذي يكشف عن فراغات كثيرة فيه تجعله عاجزا في كثير من الأحيان ، عن فهم نفسه ، أو الحكم على الأشياء كما أن احتكاك الإنسان بالعالم الخارجي يوقعه في هذا الشعور .

والشعور بالنقص يعد قاعدة قال بها علماء النفس المعاصرون،ولعل ألفياد أدلر (Adler) يعد أبرزهم حين عارض تفسير أستاذه فرويد لسلوك الإنسان بالغريزة الجنسية متخذا من الشعور بالنقص مفتاحا للسلوك الإنساني فسلوك الإنسان بالغريزة الجنسية،فسلوك الإنسان في نظر أدرلر ناتج عن«أن الإنسان يحاول دائما أن يعوض ما به من ضعف،وأن يخفي شعوره بالنقص» [9].

فإذا كان الأمر قد وصل بماريا إلى حد الخوف من عملية الحمل والاقتناع بالعجز الكلي عن الإنجاب ، فإن محاولة الإنسان تغطية النقص الذي يشعر به ينتج لنا سلوكين متناقضين ، فـ« أهل النقص رجلان : رجل أتاه التقصير من قبله ، و قعد به عن الكمال اختياره فهو ساهم الفضلاء بطبعه ، و يحنو على الفضل بقدر سهمه » (ص1) ، فالنقص في هذه الحال ينتج لنا سلوك إيجابيا ينتقل بالإنسان من درجة أدنى إلى درجة أعلى ، يتصل فيها بالفضلاء من الناس و هو ما « يبديه من مظاهر القوة والسيطرة و التعالي و بما يلجأ إليه من و سائل و حيل لإقرار ذاته » [10].والحيل هنا لا تأخذ مفهوما سلبيا ، بل تعني ما تحتال به الإنسان للتقليل من حدة الشعور بالنقص ، فالإنسان اخترع الكتابة للتغلب على النسيان ، واخترع الكمبيوتر للتغلب على ثقل التذكر و الاسترجاع ، و كل هذا إنما مرده إلى النظرة التي يرى بها الإنسان هذا النقص ، الذي فيه ، فإذا كان النقص عند الإنسان ليس بضربة لازب ، و لا بالحتمية المطلقة التي لا يقدر

معها على تحريك ساكن ، فإن في مقدور الإنسان أن يخفف من هذا النقص و أن يرفع من قدر نفسه ، إلى درجة أعلى ، لكن الإنسان مقيد في عملية التغلب على نقصه بقدراته الشخصية ، فكلما توفرت لديه الاستعدادات الذاتية ، و حتى الخارجية ، كانت درجة تقدمه في التغلب على نقصه الذي يعانيه كبيرة ، لكن هذا التغلب لا يمكنه بأية حال أن يكون مطلقا ، أي أن يلغي النقص عن الإنسان إلغاء تاما .

أما الشق الثاني من أهل النقص ، فهو الذي يرى النقص حتمية مطلقة من أصابته بترها ظل حبيسا لها ، لا يستطيع إن يتحرر من قيودها ، وأصحاب هذه النظرة لا يرون النقص ظاهرة عامة في الناس ، إنما هي عندهم ظاهرة تختص بفئة معينة ، كما أن الكمال و الفضل يختص بأخرى ، و من هذا التصور الذي يرى في حياة الناس انعداما للعدل و انتشارا للظلم يتولد العداء لكل ما هو فاضل و كامل ، فيكون اتجاه هؤلاء « اتجاها معاديا للمجتمع» [11] لأنهم يرون في وضعيتهم التي يعيشونها ، إنها لا تتوفر على أدنى مقدار من العدل، لذلك فإن هذا القسم من أهل النقص يعمل على جعل الأفاضل مثله و ذلك بـ«اجتذابهم إلى مشاركته ووسمته »(ص1). فسلوك هذا القسم من أهل النقص سلبي هدام،يسعى إلى التحطيم والتخريب الذي هو ضرب من التحاسد الناتج في واقع الأمر من التنافس على الفضل.

إن عملية الهدم هذه كثيرا ما تكون عملا إيجابيا ، من حيث لا يشعر صاحبه إذ « كم من فضيلة لو لم تستترها المحاسد لم تبرح في الصدور كامنة » (ص1) ، لأن الأعمال الجليلة لا يمكن هدمها , فعمل الحاسد برهان ودليل على ذلك ، بل أكثر من ذلك قد يحرر هذا العمل الآثار الفنية

مما يخفي حسنها , فالحداد يزيل بطرقه السيف مثلا الصديد الـذي يغلفـه ليكشف عن معدنه الصافي وبريقه الواضح , فعملية الهدم تسهم في الكشـف عن الظواهر المخبأة , والقرائح المنسية.

2- فكرة النسب :

يمكننا طرح فكرة النسب عنـد الجرجـاني مـن زاويـة ثنائيـة "الطبيعة/الثقافة" ، حيث « لم تزل العلوم – أيدك الله – لأهلـها أنسـابا تتناصر بها » (ص3) . أي :أن الثقافة توجد بين الأفراد المنتمين إليها علاقـة نسب تكون مقابلة لعلاقة النسب الدموية أو الطبيعية , وهذه الثنائية القائمـة بين "الطبيعة/الثقافة"تعد من مواضيع علم الأنثروبولوجية[12]...وهذه الثنائيـة تنطلق من فكرة أساسية هي : ما الذي يجعل الإنسان إنسانا ؟ هـل هـي تركيبته الفيزيولوجية ؟ أم نشاطه الثقافي ؟فنحن عندما نلاحـظ الكائنـات الحية وبخاصة الحيوانات فإننا « نجد أن النوع الواحد يتبع أساسا نفس أنمـاط السلوك فإن الإنسان يختلف عن ذلك بل نجد على العكس مـن ذلـك أن نوع "الإنسان العاقل" يتميز بتنوع ملحوظ في أنماط السلوك , على الرغـم من أن أفراده يتشابهون فيزيولوجيا إلى حد بعيد »[13].فالإنسان ليس جسـما أو بنية فيزيولوجية في المقام الأول , لأن ذلك لا يفرقه عن الحيـوان بـل الإنسان ثقافة لذا فيمكننا استبدال ثنائية "طبيعة/ثقافة" بثنائية أكـثر دلالي هي ثنائية "حيوان/إنسان" , حيث تكون الطبيعة في مقابل الحيوان , والثقافة في مقابل الإنسان , ومن هنا تبرز فكرة النسب ببعدها الطبيعي , والثقـافي عند الجرجاني الذي يغلب رابطة الثقافة على رابطة الدم حين يقول : « ومـا عقوق الوالد البر , وقطيعة الأخ المشفق بأشنع ذكرا...مـن عقـوق مـن

ناسبك إلى أكرم آبائك » (ص2).ذلك أن قيمة الإنسان تتضح من ثقافتـه وإنسانيته لا تتم إلا بها فـ«الثقافة جزء من الشروط التي تجعل مـن الفـرد إنسانا »[14]...وهي من هنا الأقوى في ربط الإنسان بأخيه , وبخاصـة , إذا ما عرفنا أن الإسلام – وهو الإطار المرجعي للجرجاني – قد جـاء لهـدم العصبية المبنية على أساس مـن العرقيـة والـدم , واسـتبدالها بعصبيـة "دينية/ثقافية" , يتساوى كل الناس فيها , كما أن التطور الحضاري الـذي عرفته البلاد الإسلامية بخاصة الحواضر الكبرى , قد خفف من حدة النزعـة الدموية , وأخذت النزعة الإيديولوجية , والثقافية تحل محلها , بخاصة عنـد الطبقات المثقفة , والسياسية , وأصبح التوافق يتم عن طريق التوافق الفكري والاختلاف يتم على أساس الاختلاف الفكري والإيديولوجي , حـتى وإن كانت النزعات الفردية , والأطماع لشـخصية وراء الكثـير مـن هـذه الاختلافات, والمنافرات.

وقد طرح لنا النقد المعـاصر – في بعـض جوانبـه – إشـكالية الثنائية"طبيعة/ثقافة" . فنجد الناقد إدوارد سعيد , يطرح النقد من خـلال هذه الزاوية حيث « يميز بين الموروث والمكتسب وهو يمس الرابطة الأولى : النسـب FILIATIONوالرابطـة الثانيـة: الانتسـاب AFFILIAL»...وهذان المصطلحان يرتبطان عنده بالثقافة , فالنسب يعني ما ينحدر لنا من الآباء،أو ما يعرف بالتراث بينما الانتساب« يجمع الأفـراد على أساس حرفي أو فكري أو سياسي بدافع التشابه النفسي,أو التقـارب الفكري والهوية المهنية»[15] ... وفكرة النسب عند الجرجاني تشمل جوانب

أخرى أوسع تحتاج إلى تفصيل أكثر , وتحليل أدق , للكشف عن هذه الفكرة.

ينطلق الجرجاني من كون العلوم والآداب توجد بين الناس علائق مماثلة لعلائق الدم , أو الرحم , وهذه العلاقة التي تقوم بين الإنسان والعلوم هي علاقة تشبه علاقة الولادة لأن الآداب والعلوم توجد «لأبنائها أرحاما تتواصل عليها »(ص2) فتنتقل العلاقة من هنا من "الإنسان/الثقافة" إلى علاقة بين المنتسبين لهذه الثقافة , فيتولد عن ذلك نسب أرفع من نسب الدم لأنه يأتي الإنسان من أسمى الأشياء , وأعلاها في الوجود , وهو العلم ولأن الإنسان في هذا النوع من النسب يكون أكثر حرية في اختيار من يناسبه وفي هذا يقول الجرجاني :« وما زلت أرى أهل الأدب منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم ووصلت العناية بيني وبينهم » (ص3). فالإنسان في هذا النسب يكون حرا فهو الذي يختار أي فروع العلم يحصل , وأي الناس يناسب بينما الإنسان في نسبه الدموي يخضع للحتمية التي توجده , فليس له معها خيار, إذ أن مصيره تقرر من قبل وجوده , ولكن هل درجات النسب الثقافي تشبه درجات النسب الدموي؟ بطبيعة الحال فإن الصورة التي يعطيها الجرجاني لثنائية"طبيعة/ثقافة" تجعل النسب الطبيعي المبني على رابطة الدم ينطبق على النسب الثقافي , وإن كان هذ الأخير – عند الجرجاني – أرفع درجة من الأول , وأساس ذلك هو أننا نجد في قرابة الدم أن درجة النسب تزداد قوة كلما اقتربنا من "الأمومة/الرحم" , وهكذا فإن للثقافة , أو بالتحديد للعلوم رحما كذلك , فكلما اقتربنا من هذه الرحم وجدنا أنفسنا أكثر قربا في النسب , وأمتن , فدرجة العلم في سلم العلوم هي التي تحدد

درجة القرابة بين المتناسبين ثقافيا «وبحسب عظم مزيته (أي العلم) وعلو مرتبته يعظم حق التشارك فيه » (ص2).

ثانيا : مفهوم النقد :

من خلال تصفحنا كتاب "الوساطة" لم نعثر على نص يحدد مفهوم النقد عند الجرجاني تحديدا واضحا ومضبوطا , وإنما عثرنا على هذا المفهوم مغرقا بين صفحات الكتاب , وفي نصوص مختلفة تحتاج إلى جمع , وربط ما بينها , لتتمكن في الأخير من التوصل لتحديد مفهوم النقد عند الجرجاني.

لقد مرت الإشارة في الصفحات السابقة من البحث إلى أن مدار الحديث عن النقد عند الجرجاني يدور بمجمله حول فكرة العدل , التي تظهر في الكتاب على أكثر من صورة , وفي أكثر من شكل ووجه , يقول الجرجاني : « ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف أو تخرج في بابه إلى الإسراف بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك...وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا» (ص2-3).فمن خلال هذا النص يتضح لنا مرة أخرى أن روح النقد عند الجرجاني هي فكرة العدل الذي من خلاله يقيم ميزان الحكم على الأمور , فالحقيقة هي غايتنا التي نسعى إليها , وحيثما وجدت اتجهنا إليها , حتى وإن كان في اتجاهنا نحوها إسقاط لحكم حكمنا به سابقا أو أي رأي رأيناه أو حجة احتججنا بها ذلك أن الرجل يعرف بالحق والحق ليس أمرا تصنعه الأهواء الشخصية والمصالح الآنية للأفراد أو الجماعات , وإنما هو قائم خارج ذواتنا موجود بذاته يسعى الناس إلى إدراكه , وبه يحكم عليهم , وبقدر اقترابهم منه تعرف درجات فضلهم وصدقهم , وتعقد الثقة فيما يقولون , وما يفعلون

فالإنسان قد يدرك الحق لكن العصبية تعميه على الأخذ به , وتمنعه الحمية انتهاج سبيله , فيفضل صاحبه عن جادة الطريق , ويخبط في ديجور الجهالة ويضطرب سلوكه اضطرابا يفسد عليه حياته ويشوه صورته عند الناس على الرغم مما قد يكون لصاحبه من فضل العلم والأدب وهكذا نجد أنه لا يمكن لأي حاجة مهما سمت أن تكون حجة لنا لتجاوز الحق , أو عدم الأخذ به ولأن إحقاق العدل بين الناس فوق كل شيء , فهو أساس الحياة المدير لنظامها , بل هو سنة الله التي أقام الكون عليها , والتي بها يقوم أمره وبانعدامها تختل الموازين وتضطرب القواعد , وتفقد القيم مشروعية وجودها , ويصبح الأمر فوضى تحتكم فيه النفوس لذواتها , ومصالحها فيضيع بذلك عنصر الاجتماع وتتفكك روابط المجتمع الإنساني ويصير أمره إلى الزوال والانقراض الذي هو مآل كل خروج عن سنن الكون وقوانينه المنظمة لأمره.

وحين يكون العدل هو روح النقد النابضة , وغايته السامية , تغدو العملية النقدية محاكمة ترتفع فيها الدعوات , ويختصم في ظلها المختصمون وفيها يبت في الأمور بتا عادلا , يوفر لكل ذي حق حقه , ويترل كلا مترلته التي أنزله فيها عمله وأوصله إليها جده ومثابرته , وحتى تكتمل في أذهاننا صورة هذه "الحكومة"كما عبر عنها الجرجاني(ص4) فإننا سنتناول بالتحليل والدراسة كل عنصر من عناصرها , وذلك بحسب ما تكشف عنه نصوص الكتاب , والعناصر هي :

1- القضية . 2-الخصوم . 3-المرجعية . 4-القاضي . 5-الحكم .

1- القضية :

إن القضية التي احتدم حولها النزاع , وقام لأجلها الصراع , هي قضية أبي الطيب المتنبي , وبتعبير أدق شاعرية المتنبي , فهل كان المتنبي شاعرا ؟ أم لم يكنه ؟ فإن كان الجواب الإيجاب , فما مكانته بين الشعراء العرب ؟ وإن كان بالسلب , فما وجه نفي الشاعرية عنه ؟ وما الحجة في ذلك ؟.

وقضية المتنبي هي جزء من قضية كبرى عرفها الأدب العربي في تاريخه الطويل عرفها على عدة مراحل , وفي أشكال مختلفة , عرفها في الحكم بين الشعراء الأربعة الجاهليين : امرئ القيس , وزهير , والنابغة والأعشى , أيهم أحق بالريادة ؟ وعرفها في قضية الحكم بين الشعراء الثلاثة الإسلاميين : الأخطل , وجرير , والفرزدق , وعرفها في الصراع بين القدماء والمحدثين , وبين المحدثين أنفسهم , فإذا القضية ليست بالجديدة , وإن كان الأمر يختلف باختلاف العصور , واختلاف المتنازعين فيها فـ« ليس الحكم بين القدماء , والمولدين من التوسط بين بين المحدث والمحدث بسبيل كما لا نسب بينه وبين تفضيل قديم على قديم»(ص49) وهذا أمر هام لأن كل واحدة من هذه القضايا لها ظروفها , وإشكالاتها المطروحة , ومن ثم فالحكم فيها مختلف من حيث مضمونه , ومن حيث الصعوبة التي تعترض القاضي فيها , فالحكم بين القديم والقديم أمر أقل صعوبة – تاريخيا ومنطقيا – لأننا أمام شاعرين أو نصين ينتميان إلى مدرسة واحدة , أو إلى مدرستين متقاربتين , ثم إن القضية المطروحة فيها ليس قضية إثبات لشاعرية الشاعرين أو النصين ذلك أن القدماء مسلم لهم بالشاعرية وإنما الخلاف

هو خلاف حول درجة هذه الشاعرية , فأي الشاعرين أشعر ؟ وأيهما أعلى درجة ؟ وأولى بالريادة ؟ .

أما الحكم بين القدماء والمولدين فأمر في غاية التعقيد , والصعوبـــة , فنحن هنا أمام مدرستين مختلفتين ونمطين قد لا تجمع بينهما إلا اللغة العربية , لذلك فالصعوبة مزدوجة , فبمـــاذا نحكم ؟ بـــالذوق القـــديم ؟ فنظلـــم المولدين ؟ أم نحكم بالذوق الجديد ؟ فنظلم القدماء؟ أم بذوق لا هو بـــالقديم ؟ ولا هو بالجديد ؟ وكيف السبيل إليه ؟ وضبط مقاييسه ؟ وقواعـــده ؟ ثم إن التطرف في الحكم والتعصب في الموقف أمران واردان لأن المسألة لم تعـــد تتعلق بالبت في درجة الشاعرية , وإنما هو صراع بين قديم لم يعد قادرا على مواكبة العصر وجديد يطفح أصحابه بروح الثورة , واندفاع الشباب الذيـــن يرون الحق كل الحق فيما أوجدوه فالمعركة هنا معركة وجود وبقاء. أمـــا الحكم بين الشعراء المحدثين فهو يحتاج أولا إلى إثبات الشاعرية للمحدثين ثم إيجاد قواعد مستنبطة من شعر الشعراء المحدثين , لتكون المرجعية التي علـــى أساسها نصدر الحكم عليها « وإنما يستعتب لك هذه المخاطبة من وافقـــك على فضل أبي تمام وحزبه, وسلم محل مسلم ومن بعده , فتجعـــل هـــؤلاء شهودك وحججك وتقيم شعرهم حكما بينه وبينك » (ص49) , وهذا أمر منطقي لأن الذي يرفض أن يسلم للمحدثين عامة بالشـــاعرية لا يمكنـــه أن يختصم في أي الشعراء المحدثين أشعر ؟ وأيهم أبـــدع ؟ وأبلـــغ ؟ فشـــرط الاحتكام والحكم هو الاعتراف بالمرجعية التي على أساسها يقوم الحكم .

أما عن الأسباب الكامنة وراء جعل المتنبي القضية التي من أجلـــها عقد الجرجاني حكومته , فإننا بتصفح الدراسات التي عقدت عـــن المتنـــبي كموضوع لحركة نقدية وخصومة أدبية نجد الأسباب الآتية :

أ-السبب الشخصي: فقد وجد من النقاد من حاول أن يستنقص مـــن المتنبي لأسباب شخصية , وهذا السبب كما يـــرى محمـــد منـــدور«إن الخصومات التي نشأت حول الشعراء قبل المتنبي لم تخل من عناصر شخصية »[17]...فقد هاجم النقاد قبل المتنبي أبانواس لشعوبيته ومجونه الذي مـــس العقيدة والأخلاق , مما أثار عليه كثيرا من الناس , كما هوجـــم أبوتمـــام قصد إخماد جذوته المتقدة وشاعريته التي غمرت البيئة العباسية , لذلـــك لم يكن مستبعدا أن يثير المتنبي بشخصيته وفنه حنق الكثيرين عليـــه فـــهذا الصاحب بن عباد«يقدم نصف ماله لشاعر كالمتنبي رفض أن يمـــدح وزراء بغداد»[18] ...فيكون مدح المتنبي له بابا للفخر , واكتساب الشهرة الـــتي جعل منه ندا لممدوحي المتنبي من مثل : سيف الدولة , وابـــن العميـــد , وغيرهما من عظماء ذلك العصر , لكن رفض المتنبي مدح الصـــاحب بـــن عباد أحفظ عليه هذا الأخير فقام باستنقاصه وعيبه , وألف لذلك رسالته "الكشف عن مساوئ شعر المتنبي" لتكون رد فعل على موقـــف المتنـــبي ولتكون كذلك أداة هدم , وتشويه لصورة المتنبي عند الناس .

ا-السبب السياسي : وكما كان للسبب الشخصي يد في الخصومة الـــتي وقعت حول المتنبي , فقد كان للسياسة مجالها , ومكانتها الخاصة في هـــذه الخصومة فالمتنبي قد اتصل بعدة أمراء ودول مختلفة في مشاربها , واتجاهاتها الايديولوجية ومتصارعة فيما بينها , كما أنه دخل في صراع مباشر مـــع

هؤلاء الحكام , فقد هجا كافور , ورفض مـــدح وزراء بغـــداد , فلـــم تسكت عنه السلطة الرسمية , وإن كانت فرصة الانتقام المـــادي لم تكـــن مواتية , أو لم تتوفر لها عوامل النجاح , فقد عملت هذه السلطات علـــى هدم صورة المتنبي , ومجده الأدبي باستئجار مجموعة من النقاد للقيام بهـــذه المهمة , فهذا علي بن وكيع التنيسي يؤلف كتابه " المنصـــف للســـارق والمسروق منه في إظهار سرقات المتنبي «ردا على هجاء المتنـــبي لكـــافور والطبقة الحاكمة في مصر ذلك أنه تم إسقاط الشـــاعر وإلغـــاء مكانتـــه الشعرية فإن هجاءه لا يعود أمـــرا ذا بال»[19] ...ومثـــل هـــذا فعلـــه الحاتمي في رسالته "الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنـــبي وســـاقط شعره" حيث يذكر في المقدمة دافعه إلى هذا التأليف حيـــث أرجعـــه إلى الوزير المهلبي الذي أمر الحاتمي كما يذكر بـــ« هتك حريمه وتمزيق أديمـــه ووكلني بتتبع عواره وتصفح أشـــعاره وإحواجـــه إلى مفارقـــة العـــراق واضطراره كراهية لمقامه »[20].

ج-السبب الفني : وهذا السبب له مكانته وخطره لأنه الأصـــل الـــذي يدور عليه النقد الحقيقي , ذلك أن المتنبي جاء في وقت أخذ الـــذوق الأدبي فيه يستصيغ الشعر المحدث وينظر إليه نظرة جديدة , وأصبح المذهب القديم والمذهب القديم كلا واضحا في معالمه وخصائصه , فلما جاء المتنبي جمـــع بين خصائص القديم والجديد , فأوقع النقد في حيرة الحكم لأنهم قـــد أصبحوا « أمام طريقة جديدة قديمة لا ينفع فيها ما اعتمدوه من مقـــاييس عمود الشعر »[21]...فقد كان عمود الشعر هـــو الحكـــم بـــين القـــديم والحديث, فهو يمثل ذوق العرب القدماء , وفي هذا يقول الجرجـــاني :« لم

تعبأ (أي العرب) بالتجنيس والمطابقة وتحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » (ص34) . وقبل أن نختم هذا العنصـــر يجب أن نعرض لملاحظة قدمها محمد مندور وهي : كون الخصومة الـــتي قامت حول المتنـــبي « لم تكن خصومة حول مذهب شعري وإنما كـــانت خصومة حول شاعر أصيل , وهي ليست في شيء اســـتمرار للخصومـــة حول أبي تمام»[22]...وهذه الملاحظة نجد لها في كلام الجرجـــاني شـــواهد كثيرة فهو يقول مثلا :«لأن الذي انتصبت له وشغلت عنايتك به بإلحـــاق أبي الطيب بهذه الطبقة وإضافته إلى هذه الجملة » (ص49). إذا فليس المتنبي بصاحب المذهب , أو الطريقة الجديدة التي تحتاج التأصيل , بل هو مـــن المحدثين الذين خرجوا – كل حسب درجته – كما عرفه القدماء لذلـــك فهم الناقد ليس البحث عن هذا المذهب , وخصائصه , إنما همه أن يضـــع شاعرية المتنبي في مكانها الذي وصلته والذي يناســـب جـــهد صاحبـــها وهناك نصوص كثيرة تردد هذه الفكرة وتؤكدها . ولو قارنا ما تحدث بـــه الجرجاني عن المتنبي , وما تحدث به عن أبي تمام لوجدنا الفـــرق واســـعا يقول الجرجاني في حديثه عن الإفراط في الاســـتعارة : « وقـــد كـــانت الشعراء تجري على نهج منها قريب من الإقتصاد , حتى استرسل فيه أبـــو تمام ومال إلى الرخصة فأخرجه إلى التعدي وتبعه أكثر المحدثين بعـــده » (ص429) وهذا النص واضح في معناه , فنحن أمام شاعر له أثر في مسيرة الشعر العربي وتاريخه , حيث يعد نقطة تحول وإيذانـــا بظـــهور الجديـــد ورائدا لطريقة ومذهب حديث , وتتضح هذه الريادة في كونه قد خـــرج عما درج القدماء من الاقتصاد في الاستعارة , والاقتراب بها من الـــذوق

والمنطق , فهو قد كسر قاعدة الاقتصاد هاته , واستبدلها بقاعد الإفـراط الذي لا يعرف حدودا , ولا يلتزم ذوقا عاما متفقا عليه , بل يتخذ لنفسه مسلكا يشبع رغبة صاحبه في الإبداع , ويؤكد تفرده وتميزه عـن سـائر الشعراء الآخرين , والأمر الثاني الذي يؤكد مذهبية شعر أبي تمام هو : أنـه أوجد أتباعا يحاكونه , وينسجون على منواله , فهو لم يكن بدعـا بـين الناس , أو تجربة عقيمة تنقضي بانقضاء صاحبها , وموته , بل إن أبا تمـام أوجد قواعد مدرسة فنية جديد على أسسها سارت نخبة كبيرة من الشعراء في العصر العباسي , أما المتنبي فلم يحدث هذه الطفرة في الشعر , و لم يخلـق قواعد يسير على هديها الشعراء , فالناقد مع المتنبي لا يسعى إلى تـأصيل مذهب , بل يعمل على تصنيف المتنبي , فهو أمام شاعر مبـدع عليـه أن يلحقه بطبقته , والناقد هنا يسلم مسبقا بأن المتنبي فرد من جماعة واحـدة من طبقة محددة المعالم والخصائص .

2- الخصـــوم :

يعد "الخصـوم" العنصـر الثانـي من عناصـر المحاكمـة الـتي هي أسـاس النقد عند الجرجاني الذي يعرض لنا في كتابـه أصنافـا مـن الخصوم وإن كنا سنرجع إلى هذا العنصر بالتفصيل حين نتعرض لصـورة الناقد عند الجرجاني , وأول ما نلاحظه في هذا الشأن هـو : أن الخصـوم حول المتنبي ينقسمون إلى قسمين:

أ- القسم الأول : يميل إلى المتنبي ميلا متطرفا , فيعتبره شاعرا فردا ونابغـة لا يلحق , وفحلا من فحول الشعر « ويشيع محاسنه إذا حكيت بـالتفخيم , ويعجب ويعيد ويكرر , ويعيب على من عابه بالزراية والتقصير ويتنـاول

من نقصه بالاستحقار والتجهيل , فإن عثر على بيت مختل النظام إلتزم مـن نصرة خطئه , وتحسين زلته ما يزيله عن موقف المعتـذر» (ص3). ففـي سلوك هذا الصنف من الخصوم تطرف , وعصبية مبغضة , تخرج بصاحبـها عن حدود العقل والحكمة إلى حمق الجهالة , فهذا النوع من السلوك , وهذا النمط من الانتصار للمتنبي , يخل بقواعد العقل ومبادئ الحكمة , كما يخـل بأسس الأخلاق وروح العلم وأدب الاختلاف , فهو يجعل من المتنبي صـورة للكمال الذي ليس فوقه زيادة لمستزيد , وهو يقلب الأخطـاء حسـنات , يتكلفه العلل واستنباطه للأعذار والرخص , التي لا يستسيغها العقل , وهذا الموقف من المتعصبين للمتنبي لا يخفى على الدارس خطأه , وقد كررنـا في أكثر من موضع , أن خلقة الإنسان قد بنيت على النقص , وهكذا فكـل مقولة تعاكس هذا الرأي , فمصيرها الوقوع في الخطإ والزيف , كمـا أن في موقف هؤلاء الأنصار المتعصبين مساسا بأخلاقيات الحوار , وآداب الجدل , والاختلاف , فليس للخصم أن يصف خصومـه بالجهالـة لأن في ذلـك تشويها لصورتهم , ومساسا بكرامة العلم والأخلاق فإن فقد العلم قاعدتـه الأخلاقية , تحول العلم إلى نقمة يشقى الإنسان بهـا لـذا وجـب علـى المتخاصمين أن يكونوا على درجة من الأخـلاق تحميـهم مـن الطيـش والسفاهة , وأساس هذه الأخلاق هو : أن الإنسان الباحث عن الحكمـة يحترم الآراء المخالفة ولا يعتقد مسبقا بخطئها إنما هدفه أن يمحـص هـذه الآراء , ويقلب الحجج والبراهين , وأينما ظفر بالحكمة أخذهـا , فـإن لم يجدها عند فلان من الناس تجاوزها إلى غيره دون أن يعرض لـه بـالتجريح والشتم , لأن لكل واحد الحق في إبداء الرأي , وقد كـانت القـاعدة في

الإسلام " من اجتهد فأصاب فله أجران ومن لم يصب فله أجر الاجتهاد" والعبرة ليست دوما بالنجاح , إنما العبرة في محاولة البحث وعناء الكشف لأن الإنسان يتعلم من الخطإ أكثر مما يتعلم من نجاحاته في الحياة .

ب- والقسم الثاني : هو الخصم المعترض على كون المتنبي شاعرا ، فهو : «يروم إزالته عن رتبته فلم يسلم له فضله , ويحاول حطه عن منزلة بوأها إياه أدبه , فهو يجتهد في إخفاء فضائله , وإظهار معايبه وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته » (ص3).

وهذا الصنف الثاني من الخصوم هو : العصبية المتطرفة التي تعدل بصاحبها عن جادة الحق , وتسقطه في شراك الجهل , الذي يجعل صاحبه يأتي من السلوكات والمواقف ما لا يوافقه عليه عاقل أو يتبعه فيه فاضل , يخشى ظلم الناس والخروج عن الصواب , وإذا كان القسم الأول قد نفى النقص عن المتنبي , وحول الأخطاء حسنات , فعمل الدجال الذي يسحر العيون فيريها الأشياء على غير حقيقتها , فإن الصنف الثاني من الخصوم قد ارتكب رذيلة أخرى هي : إنكار الجميل ,التشهير بالعيوب وهذا ليس من الأخلاق , لأن العدل يوجب علينا الاعتراف بفضل الناس وفضائلهم حتى وإن كان الشخص الذي يعترف له بذلك من أشد أعدائنا , لأن من طابع العادل عمل ذلك , إن إظهار العيوب لا يكون القصد منه التشهير و السخرية , بل تستظهر العيوب ليعرف صاحبها مواضع الخلل في إبداعه ليتفاداها , ويتعلم غيره من أخطائه الصواب , أما إظهار العيوب على أنها جريمة قام بها صاحبها وأنها زلة لا مثيل لها , فهذا أمر لا يسير والمنطق السليم للحياة , إذ لا نجد من الناس من هو معصوم من الخطإ .

ويقدم لنا الجرجاني في الوساطة نماذج لهؤلاء الخصوم,وسنعرض لهم عرضا سريعا في هذا الموضع في انتظار تفصيل الحديث عنهم في القسم المخصص عنهم في القسم المخصص للناقد الجرجاني,ومن نماذج هؤلاء الخصوم :

- « نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر » (ص434).
- « معنوي مدقق لا علم له بالإعراب » (ص438).
- رجل « يعم بالنقص كل محدث , ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلي وما سلك به به ذلك المنهج » (ص49).

وحين نتصفح النصوص التي تعرض لهذا القسم من الخصوم نجد : أن هناك عاملين هامين يمكن لهما تقديم تفسير يكون أقرب إلى الحقيقة لسلوكهم وموقفهم , وهذان العاملان هما :

أ - الجهل : وهو عامل معلوم ضرره الذي ينعكس على السلوك إذ يقف صاحبه عند حدود ضيقة من المعرفة التي تكون في أكثرها تراكما من الخرافات والتناقضات , التي تشوش ذهن صاحبها وتحط من ذوقه فيصدر الأحكام الجزافية على كل شيء يعتقد أنه يقع خارج دائرة علمه الضيقة جدا والتي تجعله يرى في سلوكه , وقيمه الشخصية , الممثل الوحيد للحقيقة , والتي بها يقاس العالم , وعلى منوالها يجب أن يسير كل الناس .

ب - التعصب للقديم على حساب الحديث : وهذا العامل يمكن رده إلى العامل السابق باعتباره مظهرا من مظاهر الجهل , وهذا الموقف توجد من ورائه مجموعة من العوامل والدوافع التي سنعود إلى تحليلها لاحقا .

أما عن أهمية الخصوم ودورهم في النقد فالجرجاني يعطيهم - إلى جانب ما يثيرونه من قضايا وأحكام حول القضية المطروحة للخصام - دورا آخر في النقد هو دور التنبيه على الخطإ الذي يقع الناقد فيه .

« فإن رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردني إليها ونبهني عليها ... والمدعي أشد اهتماما بما يحقق دعواه من المتوسط , وعناية الخصم بشهوده أتم من عناية الحاكم » (ص178).

فالخصم الحقيقي ليس الذي يصدر أحكاما أو يقف موقفا ساذجا غير معلل وقائما على الحجج , إنما على الخصم أن يقارع الحجة , وأن يستحضر شهوده , وأن ينبه الناقد إلى ما يكون قد نسيه , أو أهمله , لأن وظيفة الناقد هي إحقاق العدل الذي يستند إلى قوة الحجة , فالخصم الذي يقدم الحجة القوية يكون صاحب الحق , لذا فليس كل الناس يصالح لكي يكون خصما بخاصة في قضايا الفكر والأدب .

3- المرجعية :

نقصد بالمرجعية مجموعة القواعد النظرية والمنهجية التي يعود إليها الناقد في إصداره للحكم , وهي عند الجرجاني كما اتضح لنا من خلال استقرائنا للوساطة أربعة مراجع هي :

أ- نصوص القدماء .

ب- القواعد الفنية .

ج- الذوق الفردي .

د- الإحصاء .

أ- نصوص القدماء :

يعد هذا المرجع الأساس الذي يرتكز عليه العمل النقدي عند الجرجاني , بل لا نبالغ إن قلنا : إن الجرجاني قد اعتمده كليا , وإن الحديث عن باقي المراجع لم يكن في أغلب الحالات إلا استطرادا في الكلام , وهذا المرجع يستند في أساسه على جعل القدماء حكما فيما وجد عند المحدثين من حيد , يشبه ما عند القدماء أو ما عند المحدثين من خطإ , ووجد مثله عند القدماء أيضا , وهذا النوع من المرجعية يسميه الدكتور إحسان عباس بـ"المقايسة" [23].

فالنقد من هذا المنطلق يسلك منهج القياس , فنحن هنا أمام عمل يشبه عمل النحاة واللغويين الذين يعدون الاستقراء المطبق على النصوص القديمة المنطلق الأول في وضع قواعد اللغة العربية , والتي أصبحت المرجع الذي يقاس عليه كل نص لاحق , ومن خلال هذه المقايسة يصدر الحكم على النص بمطابقة القواعد , أو بخروجه عنها.

والنصوص التي تدل على هذه المرجعية كثيرة جدا لذلك سنقدم بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر :

-« وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب وعظيم غنائه في تحسين الشعر , فتصفح شعر المتأخرين وتتبع نسيب متيمي العرب و متغزلي أهل الحجاز , كعمر وكثير , وجميل , ونصيب » (ص24-25).

-« وإذا احتملوا لامرئ القيس قوله :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الدر فوق الإتب منها لأثرا

ولحميد قوله :

منعمة لو يصبح الـذر سـاريا على جلدها صبت مدارجه دما

واحتملوا للمحدث قوله :

يجـرحـه اللحـظ بتـكراره ويشتكي الإيـماء بـالكـف

ولأبي الطيب قوله :

تـألـم درزه والـدرز لـين لـما تتألم العضب الصنيعـا »

(ص426-427).

ويقول عن عموم الخطإ في الشعـراء «ودونك هذه الدواويـن الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكـثر لا يمكن لعائب القدح فيه » (ص4).

وخلاصة الأمر من هذه المقاييس هو أن يؤاخذ المحدثون بمـا قالـه القدمـاء , وبما يؤاخذون عليه فالخطأ إذا « احتمل فللكل وإن رد فعلـى الجميع » (ص48). أي أننا نعتمد القدماء مرجعا لنا فيما شـابههم فيـه المحدثون , فما رفض عند القدماء يرفض عند المحدثين , وما قبل عند القدماء قبل عند المحدثين , وفي هذه النظرة ظلم للمحدثين , لأنه يراد لهم أن يكونوا كالقدماء في إبداعهم , ولغتهم , وصورهم , وحتى في أخطائهم . أما مـا زاد عما جاء به القدماء فإن الجرجاني لا يحدثنا عن طرق التعامل معه , هـل نرفضه قياسا على القدماء الذين لم يقولوا مثله ؟ أم نقبله ؟ وفي هذه الحـال على أي الأسس نبني قبولنا ؟ .

وقد وجه الدكتور إحسان عباس لهذه الطريقـة مجموعـة مـن الملاحظات لعل أهمها : **التعميم** , أي أن الجرجاني كثيرا ما يعمم الحكـم في هذه المقايسات , مما يوقعه في خطإ إصدار الأحكام المفتقـدة إلى السـلامة

والصحة , كما في أخطاء القدماء اللغوية (ص5-15) . التي يرى الدكتـور إحسان عباس أن الجرجاني جانبه الصواب فيها «فإن امرأ القيس إذا قـال: فاليوم أشرب بتسكين الباء لم يكن قوله في رمته ليعد خطأ».[24]

وهذا لأسباب منها :

-إن امرأ القيس كان متقدما على وضع القواعد النحوية ومن ثمة لا يؤاخـذ بها وعلى العكس منه المتنبي الذي تعلم اللغة عن طريق القواعد .

- اختلاف اللهجات العربية في العصر الجاهلي , مما يجعل ما هو خطـأ في الظاهر له أساسه الواقعي والاجتماعي الذي يبرر وروده في الشعر .

وينتهي الدكتور إحسان عباس إلى نتيجة هـي : « أن القـاضي الجرجاني لم تكن لديه أية فكرة عن اختلاف اللهجات , وتطور الاسـتعمال اللغوي»[25] . وهذا الحكم الأخير فيه كثير من التجني على الجرجاني , أمـا الحجج التي قدمها الدكتور إحسان عباس لتعليل قول امرئ القيس , فـنرى أن الأمر فيها ليس بالسهولة التي عالجه بها الدكتور إحسان غباس , ذلك أننا حين نعرض لمثل هذه القضية نستحضر تراثا لغويا ضخما كما نثير قضايـا كثيرة نحاول إيجازها في بعض النقاط :

- إن التقعيد للغة العربيـة عرف منهجيـن : منـهج البصريـين الـذي يعترف بوجود الشاذ الذي يخضع لقاعدة بعينها لأنه ينتمي إلى لهجة مهملـة أو له بنية خاصة ... ومنهج الكوفيين الذين جعلوا لكل اسـتعمال لغـوي قاعدة حتى وإن ندر , فأي القواعد نحكم هنا ؟ قاعدة البصـر ؟ فيكـون استعمال امرئ القيس شاذا , أم قاعدة الكوفة ؟ فيكون اسـتعمال امـرئ القيس سليما.

- إن تعلم لغة ما لا يكون بحفظ قواعـــدها , إنمـا يكـــون بحفـظ نصوصهـا والاحتكاك بمستعمليها أولا وقبل كل شيء , ومن ثمة لا نحكـم على المتنبي أنه تعلم اللغة قواعد لذا يحاسب على الخطأ , ذلك أننا نجد المتنبي في كثير من الأحيان , يرد على الذين عابوا بعـض اسـتعمالاته اللغويـة بالشذوذ , يردهم إلى نصوص قديمة ورد هذا الوجه مـن الاسـتعمال , أو غيره فيها , فالقاعدة ليست حجة على اللغة إنما النص هو الحجة .

- ومن الأخطاء التي نسب الدكتـور إحسان عباس وقوعـها إلى الجرجاني أثناء مقايسته لأخطاء القدماء , الأخطاء المعنوية الـتي ترجـع إلى مرحلة حضارية مر بها المجتمع العربي « مثل : لو يقوم الفيل وفيا له فنسـب القوة إلى الفيال توهم خالص , ممن لم ير فيالا أو فيلا »[26] . ونحن نـرى أن الدكتور إحسان عباس يحاول تعليل هذه الأخطاء , وتعليل الخطإ لا يعـني إلغاءه , أو نفي وجوده , فهو من هنا يتفق ضمنيا مع الجرجـاني علـى أن القدماء وقعوا في أخطاء مهما كان السبب في ذلك .

إن المقايسـة التي اتبعها الجرجاني في الوساطـة ليست مجرد منـهج أو طريقة لإصدار الحكم , وتحقيق العدل في محاكمة المحدثين , إنما تعكس لنا من جهة أخرى موقف الجرجاني من الشعر المحدث , فهو على الرغم مـن سعيه إلى إنصاف المحدثين , والاعتراف لهم بالشاعرية , إلا أنـه بمقاييسـه أوقع نفسه في إشكاليـة هي : ما مميزاته شاعرية المحدثين ؟ .

إننا عندما نـدرس الكثير من النصـوص التي تقـع الإحالـة فيها إلى القدماء ومقاييسه المحدثين عليهم , نجد أن الجرجاني يرى في شاعرية

المحدثين مجرد استمرار لشاعرية القدماء , وفي هذا يقول الجرجاني :« ولمـا سمع أبو الطيب المتنبي قول قيس بن الخطيم في الطعنة نافسه فقال :

إذا ماضربت القرن ثم أجزتني فكل ذهبا لي مرة منه بالكلم.

فلم يحفل بسوء التنظيم , وهلهلة النسج لما حصل له الغرض في انهار الطعنة وتوسيع الجرح » (ص/424) .

فالمحدثون يعترف لهم بالشاعرية حين يجارون القدماء ، ويسـلكون الطريق التي أقامها لهم السابقون ، فشاعرية المحدثـين ليسـت إلا صـدى لشاعرية القدماء ، وهذا الصدى مشوه لأنه لايصدر عن أصالة من جهـة،ثم لأنه تضخم في الكم ،أما ما جاء به المحدثون من جديد لم يرد عند القدمـاء فهو النقص والضعف.

وموقف الجرجاني يشبه إلى حد كبير ما ذهب إليه ابـن المعـتز في حديثه عن البديع وأنه ليس بظاهرة مستحدثة ،إنمـا جـذوره تعـود إلى القدماء، فجاء كتابه البديع ليؤكد « أن بشارا ومسلما وأبا نـواس ... لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في إشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهـذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه»[27] . فشاعرية المحدثين ليست مبدعة ،إنمـا هي مقلدة تنظر في إشعار القدماء وتسير علي منهجهم ، وإنما فضلها ـــ إن كان لها فضل ـــ هو الإكثار مما ذكره القدماء من البديع ، والإفراط والغلـو في هذه العناصر التي ليست من عمود الشعر الذي يعد المحور الأساسـي في الإبداع العربي ، إذ أن العرب« لم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفـل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض» (ص34) .

إذا فالعدل في الحكم بين القدماء والمحدثين لا يتعدى الاعتراف للمحدثين بالشاعرية،أما تسويتهم بالقدماء،أو تفضيلهم عليهم فهذا أمر غير وارد البته.

أ- القواعد الفنية :

يعتمد هذا المرجع على وجود قواعد فنية موضوعية يمكـــن علـــى أساسها الحكم على العمل الأدبي بالجودة ، أو بعكسها ، وهذا النوع مـــن المرجعية لم يأخذ به الجرجاني كثيرا ، لذلك لم نعثر له إلا علي إشارة واحدة – من حيث الجانب النظري – يقول الجرجاني : « وللفضل آثار ظـــاهرة وللتقدم شواهد صادقة فمتى وجدت ، تلك الآثار ، وشوهدت الشـــواهد فصاحبها فاضل متقدم »(ص4) .فجمالية الأثر الأدبي ، وأدبيته ليست أمـــرا نصدر فيه عن ذواتنا – وإن كان الذوق الشخصي أمرا ضروريا في العمليـــة النقدية – بل هناك أسس ، وقواعد موضوعية نابعـــة مـــن النـــص يمكـــن استخراجها ، والحكم على أساسها وهذا المفهوم يقترب كثيرا من بعـــض الاتجاهات النقدية المعاصرة التي تحاول إيجاد نقد علمي يقوم علـــى أســـس وقواعد يكون الحكم النقدي فيها ، أكثر قربا من الحقيقة منـــه إلى الـــرأي الشخصي الذي كثيرا ما لايسلم من الذاتية المتطرفة بأهوائها ، ونزاعاتها الـــتي تكون غالبا مضادة لروح العلم والحق ، وأما انعدام النصوص ، والإشـــارات المتعلقة بهذه الفكرة –من الناحية النظرية- يصعب علينا تحديـــد مفهومـــها وصورتها تحديدا دقيقا .

ج- الذوق الفردي :

وهو عنصر رجع إليه الجرجاني في الكثير من المواقف المستعصية الـــتي يقف فيها الناقد موقف العاجز عن التعليل والتحليل والولـــوج إلي أعمـــاق العمل الإبداعي المقبول أو المرفوض ، وقد عبر الجرجاني أكثر من مرة علـــي اللجوء إلي التذوق وتحكيمه في المواقف الـــتي يســـتعصي فيـــها التحليـــل والاحتجاج بالحجج الظاهرة البرهان يقول الجرجاني ناصحا النـــاقد الـــذي يواجه مشكلة العجز عن تفسير ظاهرة فنية ، كأن تكون هذه الظاهرة هـــي عدم إعجابنا بالعمل المتقن الصنعة بينما نرى ماهو أقل منه صنعة يشدنا إليـــه يقول: «ولكن أقصى ما في وسعك ، وغاية ما عندك أن تقـــول موقعـــه في القلب ألطف ، أو هو بالطبع أليق » (ص412). إذا فالانفعال الذي يحـــدث لنا من جراء التواصل القائم بيننا وبين الأعمال الإبداعية يعد مصدرا للنقـــد والحكم ، وهو يعد الخطوة الأولي في العملية النقدية، إذ منه تبـــدأ الرحلـــة الخاصة بالبحث في أسرار العمل الأدبي ، كما أن الاحتكـــام إلى الـــذوق الفردي ، والانفعال الأول المتولد من مباشرة الاتصال بالأعمال الإبداعيـــة كان من مميزات النقد العربي في بداياته الأولي حين كانت الأحكام تصـــدر عامة غير معللة ، ويصدرها الملتقي إصدارا عفويا ، يعبر تعبيرا مباشرا عـــن الأثر الذي تولده الأعمال الإبداعية في نفوس متلقيها .

د- الإحصـــــاء :

وأساس هذه المرجعية الاعتماد علي الكم في الحكم ، فنحن نحصـــي عيوب الشاعر ، ومحاسنه ثم نطرحهما فما فضل يعد حكما للشاعر أو عليه يقول الجرجاني :

« فإن قلت كثر زللـــه ، وقل إحسانه ، وأمن معه تسيئ معايبـــه ، وضاقت محاسنه قلنا هذا ديوانه حاضر ، وشعره موجود ممكن العلم به ، هلم نستعرضه و نتصفحه ونقلبه ونمتحنه ، ثم لك بكل سيئة عشرة حسنات ، وبكل نقيضه عشر فضائل فإذا أكملنا لك ذلك ، واستوفيناه وقادك الاضطرار إلى القبول أو البهت ووقفت بين التسليم والعناد عدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به وإلى ما فضل بعد المقاضاة فحاكمناك إليه» (ص53).

فهذا النص يوضح لنا معالم هذه المرحلة ، فنحن نحتكم فيها إلى الديوان نستخرج محاسنه ، ونطرح بعضها ببعض فما بقي لنا من الشعر بعد الحكم بيننا لكن ليس للناس للمقياس الكمي الفصل لفصل في قضايا الإبداع والجمال لأننا نحتاج قبل ذلك إلى أن تتوفر لنا مقاييس للحسن ، والقبيح لنحتكم إليها ونميز بها النصوص ، ولكن يبقى هذا المنهج مقبولا على العموم وأقرب إلى إصابة الحقائق الحقيقة والمطلق .

4– الناقد / القاضي :

يقول الجرجاني :« :« ولكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها » (ص11). لقد (1). لقد أفرز التطور الحضاري الذي عرفه المجتمع العباسي – وبخاصة – عصور الازدهار منه ، عدة معطيات منها ، ضرورة وجود الإنسان المتخصص في كل فرع من الفروع العلمية والفنية التي أوجدها التقدم وأفرزها درجة التحضر ، التي وصلها المجتمع ، أن الشخصية الموسوعية المتعددة التخصص لم تعد قادرة علي استيعاب العصر بكامله ، فهناك كم من المعارف ضخم للغاية يصعب بسبب استيعابه ، وتمثل الصحائف الصغيرة ، كما أن هناك

خبرات وحرفا وصناعات متنوعة ، ومن هنا فقد مس التخصص كل الجوانب ، والمعارف ، بم فيها النقد الذي ظل فترة طويلة صناعة يمتهنها كل الناس ، فللغويين آراؤهم ، وللفقهاء آراؤهم ، وللخلفاء آراؤهم ، وكل هذا جعل النقد الأدبي يتعثر في طريقة ويصبح عاجزا علي تعمق الظاهرة الأدبية وتفهم أبعادها ، ذلك أن كل واحد من الناس يبحث في الأدب عن بغيته ووفق ذوق مشكل من ثقافة خاصة فأهل اللغة يبحثون عن اللغة وبها يحكمون على العمل ، فيستسقطون ما يستسقطون ، ويرفعون ما يرفعون من النصوص ، على أسس من القواعد اللغوية التي وإن صح الحكم بها ، إلا أنها لاتمثل العملية الأدبية في كل تفاصيلها ، ودقائقها –بخاصة– وأن الفكر قد تطور ، وأصبح أكثر تعمقا للأشياء وأكثر إلحاحا على الحقائق و التفسيرات العلمية المفصلة ، المبنية على أسس من العلم الصحيح ، والبحث المستفيض لأن أحكام السابقين من النقاد – إن صح تسميتهم بذلك – لم تعد تشبع الفهم الفكري ، والعقلي لأنها تتصف بالانفعالية والإعجاب واللذان يقدمان لنا معرفة بالنص غامضة « إن أقنعت الذوق فهي لا تقنع العقل »[28] ومن هنا فقد عجز المقاد عن تمثيل الظاهرة الأدبية « قد يجد الصورة الحسنة ، والخلقة التامة مقلية ممقوتة ،وأخرى دونها مستحلاة و مموقة » (ص106) إذا أين التفسير المقبول الذي يحل هذه الإشكالية فلم تعد المقاييس الشكلية للنص – بقادرة علي حل ألغاز الجمال الأدبي فكان لهذا العجز ، وهذا الإفلاس أثره ، حيث أرشد « الفكر النقدي العربي إلي أن مسألة " القيمة الفنية " رهينة تصور وظيفة الناقد »[29] فلا بد من رجال يتخصصون فيه

تتوفر لهم الأداة اللازمة ، والتفرغ للعمل حتي ينهضوا لهذه المهمـــة ، خير نهوض ، ويصبحوا الحكم فيما يختلف الناس فيه من أمر الأدب .

وقد رسم الجرجاني في الوساطة صورة للناقـــد تمتاز بـــأن لهـــا وجهين : أحدهما سلبي يتمثل في الرواة واللغويين وأهل الأدب الذين أعمت العصبية عيونهم , فسلكوا في أحكامهم مسلكا شاذا , تجنبوا فيـــه جـــادة الصواب وتحقيق العدل . أما الوجه الثاني فإيجابي يمثل الصورة الحقيقية الـــتي يجب أن يكون الناقد في حكمه وثقافته وسلوكه ,وكـــلا الوجـــهين يعـــد ضروريا في بناء صورة الناقد عند الجرجاني .

أ- **الوجه الأول** : يتكون من الرواة والنحاة وبعض أهـــل الأدب الذيـــن يصدرون في أحكامهم النقدية عن أفكار مسبقة , وتعصب للقدمـــاء علـــى حساب المحدثين , ولا يرون من الشعر أو الأدب إلا الجـــانب الشـــكلي – بمفهومه البسيط – من نحو ولغة وغريب ومنها يصدرون أحكامهم , وعليها يبنون مواقفهم , وهم في سلوكهم هذا إنما يصدرون عن ثقافتهم التي ثقفوها وتكوينهم الأدب « فيونس كان نحويا يحرص علـــى الـــتراكيب ونظـــم الكلام»[30] لهذا كان يفضل الفرزدق على جرير , لأن شعر الفرزدق «فيـــه تقديم وتأخير ومداخلة » [31] . ما يجعل يونس وغيره من النحاة أكثر تعلقـــا به وميلا إليه وأخذا به , وتفضيلا له , ولهذا فقد عد الجرجاني أن النـــاقد الجيد ليس الذي يعتمد « على سلامة الوزن وإقامة الإعـــراب» (ص413) في حكمه لأن هذه أمور ليست بذات الأهمية الكبرى في العمل الفني , ثم هـــي في متناول كل إنسان يرومها , ويقصد إليها , فسهل على الإنسان العـــادي أن يكشف انكسار الوزن أو اختلال الإعراب , أما ما هو أعمق من ذلـــك

والذي هو جوهر الظاهرة الأدبية , فهو أمر من الصعب إدراكه , ويحتاج من الناقد أن تتوفر فيه شروط تؤهله لذلك .

ب- **الوجه الثاني** : يقول الجرجاني :« واعلم أني رسول مبلـــغ , وســـامع مؤد,وإني كما أناظرك أناظر عنك , وكما أخاصمك أخاصم لـــك , فـــإن رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردني إليها , ونبهني عليها , فمـــا أبـــرئ نفسي من الغفلة , وأدعي السلامة من الخطإ» (ص178).

إن هذا النص يمثل لنا صورة الناقد الفاضل كما تصوره الجرجـــاني وهذه الصورة يمكن حصرها في ثلاثة محاور كبرى هي :

1-التوسط بين الخصوم .

2-المناظرة .

3-الانقياد للحق كيف ما كان .

أما التوسط فيكمن في أن الناقد يحتل مكانه القاضي , الذي يقـــف من خلال موقعه وسطا بين الخصوم , يسمع كل طـــرف مـــن الأطـــراف المتخاصمة , وينقل لكل طرف اتهامات الطرف الآخر و حججه في الدفـــاع عن موقفه , والرد على الطرف المقابل له , وهو هنا ما يـــؤدي دور القنـــاة الناقلة للرسالة المتبادلة بين الخصوم , ويمكن تمثل ذلك كما يأتي :

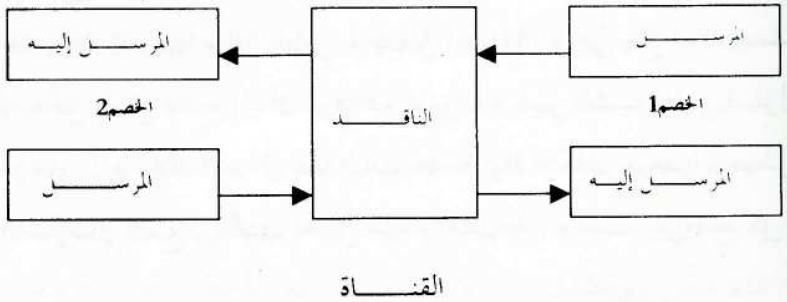

إن الناقد في هذه المرحلة , أو هذا الجانب من صورته يكون محـــايدا لأن غايته القصوى هي إسماع كل طرف من أطـــراف الخصومـــة صـــوت الطرف الآخر ,هذا الإسماع الذي يكون المثير الأكبر للبدائع والمنبه للعقـــول كي تستجمع حججها , وتنقب في الحجج المضادة عن مكامن الخطإ الـــتي تكون مدخلا لهدم حجة الخصم , وإسقاط موقفه , والناقد في هذا المحـــور من عمله يجب أن يتوفر على قدر عال من الأخلاق – بخاصة – أن يكـــون أمينا في نقله النصوص والأقوال , لأن أي إخلال أو تحريف لها , قد تنجـــر عنه نتائج وخيمة تنعكس على الحكم النهائي الذي يكـــون الفيصـــل في القضية المطروحة للنقاش .

لكن صورة الناقد عند الجرجاني لا تكون حبيسة هذا المحور , إنمـــا تنتقل بنا خطوة يتحول الحوار فيها من حوار بين الخصوم إلى حـــوار بـــين الناقد وكل أطراف الخصومة , لأن في هذه المحاورة والمجادلة يستظهر النـــاقد الحجج المطروحة , ويناقشها من جميع الجوانب حتى يقوم البرهان القـــاطع على سلامة هذا العنصر , أو عدم سلامته , لأن الناقد الحق لا يكتفي بمـــا يقوله الآخرون ولا يسلم للشيء إلا إذا قامت البراهين على صحته , لـــذا فهو يختلي بكل خصم يناقشه , ويجادله , ويقلب حججه على أكـــثر مـــن وجه , عله يجد فيها منافذ للطعن لم يتفطن أحد لها , وحتى يبلغ الناقد هـــذه المرتبة من العمل يحتاج إلى أن تتوفر فيه مجموعة مـــن الشـــروط , يقـــول الجرجاني : « ملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمـــل والاسترسال للطبع , وتجنب الحمل عليه والعنف به , ولست أعني بهذا كل

طبع , بل المهذب الذي قد صقله الأدب وشحذته الرواية , وجلته الفطنـــة وألهم الفصل بين الرديء والجيد وتضور أمثلة الحسن والقبح » (ص25).

إن هذا النص يعكس لنا بحق الشروط التي يجب توفرها في النـــاقد ولعل أولها توفر الناقد على الطبع السليم الذي يؤهله للكشف عـــن خبايـــا النصوص والاتصال المباشر بعالمها الجمالي , لكن هل يكفي النـــاقد الطبـــع الفطري وحده ؟ إن الطبع حين يكون في حالته الأولى قد لا يسعف صاحبـــه بشيء , لأنه قد يقف عاجزا عن الوصول بصاحبـــه إلى حقـــائق الأمـــور وجماليات النص , مما يستوجب على الناقد أن يدعم طبعه وذوقه بمجموعـــة من الوسائل الثقافية الواسعة التي تكون بمثابة المهذب الذي يصقـــل الطبـــع ويخرج به من الحالة الفطرية إلى حالة تتضح المعالم فيها وضوحا تاما يقضـــي على الفوضى المعطلة للقدرات , فينطلق الطبع وقد أشبع بمجموعة من القيـــم المختلفة مستقيم السير لا تقف قضية أمامه , أو نص إلا عرف الخطـــوات الكفيلة بتمكينه من النفوذ إلى أعماقه والكشف عن أسراره , ولعل من أبـــرز عناصر الثقافة الواجب توفرها عند الناقد : حفظه النصوص الأدبية وروايتـــها لأن في حفظها والاحتكاك بها شحذا لمواهبه , فيمتلك من خـــلال ذلـــك الأذن الموسيقية المرهفة التي تسمع النغم حين يظن النشاز , وتسمع النشـــاز حين يظن النغم , والملكة المدركة للصورة الجميلة , والمعنى العميق واللفـــظ الموجي . ويجب أن يتوفر الطبع على العقل الثاقب المتنبه الذي لا يكاد يغفـــل أمرا , أو يسهو عنه – قدر المستطاع – عمله الدائم التعمـــق في الأمـــور وتتبع دقائق الصور , وأجزائها المتناهية الصغر ,و التي من خلالها ينفـــذ إلى عالم النص , ويكشف عنه الأشياء التي قد تغير الأحكام الصـــادرة مســـبقا

فكثيرا ما يكون الضعف في الصورة الأدبية من الدقة ما يجعل الناقد الضعيف – الذي يفتقد الفطنة – لا يفرق بين الصور , فيصدر الحكم عليها بالتشابه أو بسرقة اللاحق لـ للسابق , كل التجني إنما يأتي الناقد من ضعف الأداة الفاحصة المدققة التي تنفذ إلى ظواهر الأشياء , ولا تنفذ إلى ما وراء الظاهر لتكشف عالما يزخر بالاختلاف والتمايز والتضاد . كما يجب أن تتوفر للناقد أسس من الجدل والسفسطة التي يبني على أساسها أحكامه وموقفه إزاء القضايا والظواهر الأدبية لأن في وجود هذه الأسس ضبطا محددا يمنع صاحبه من الوقوع في النقص الذي كثيرا ما يأتي إلى الناقد من جانب افتقاره للجانب النظري في أعماله النقدية , فهو يحتكم إلى مزاجه الخاص فيرفع النص إلى درجة الكمال حين يرضى , وينزله إلى أسفل الدرجات حين يسخط , وبين الرضا والسخط تضيع الحقيقة ويغترب النص , ثم إن وجود الأسس النظرية يساعد على مناقشة الناقد وتفهمه وتقبل نقده أو رفضه , أما الأسس العملية فهي لا تكون في غالب الأمر إلا امتدادا لهذه الأصول .

إن أشد ما لا يعدما للناقد السير في عمله سير المتكلف , لأن التكلف ليس إلا وجه من وجوه العصبية , التي سنعرف لاحقا ضررها . فمن مظاهر التكلف أحكام مسبقة على الظواهر الأدبية , فإذا كان الحكم على المحدثين من الشعراء : أن لا شاعرية لهم , فإن الناقد المتكلف يطبق هذا الحكم بحذافيره حتى وإن كان في هذا التطبيق خروج على ما يقره العقل والطبع , فالمتكلف هو ناقد مقيد يسير وفق أوامر الآخرين وليس وفق الطريقة التي رسمها له طبعه .

ونصل بعد هذا كله إلى الخلفية العميقة المكونة لصورة الناقد عند الجرجاني , والمتمثلة أساسا في كون الناقد – خاصة – وكل إنسان عاقل – عامة – يبحث عن الحق , وسمة الباحثين عن الحق الأولى عدم التعصب لغيره وإنما غاية الباحث الوصول إلى الحق مهما كان الطريق صعبا ويستوجب من صاحبه العناء , وبذل الجهد , أو التخلي عن أمور رسخت في النفس فانتزاعها ليس بالأمر الهين الذي يمكن لأي إنسان القيام به , إنما هو أمر صعب يحتاج عقلا متفطنا ناقدا يخضع كل الأشياء للبحث والتنقيب فما سلمت كل وجوهه من الشوائب عد من الحق إلى حين وجود ما يناقض ذلك فالناقد الحق يتقبل كل تنبيه أو توجيه أو نقد يكون فيه إصلاح أمر وتوضيح مسألة , وكشف مجهول , ودحض خطإ , بل إن الجرجاني ليجعل من ذلك النصح نعمة (ص479) مثل باقي النعم التي يعيشها الانسان في كنفها , بل لعلها أعظم نعمة , لأن معرفة الحق سبيل إلى تعميق الايمان الذي فيه اقتراب من الله , والاقتراب من الله يوجب إصباغ رحمته على عباده , هذه الرحمة التي هي مفتاح السعادة الدنيوية والأخروية , وأي غاية أفضل من الوصول إلى هذه السعادة .

وسبيل الحق شأنه أن يرفع من قدر سالكه , وأن يصل به إلى الدرجات العالية التي تكسبه ثقة الآخرين , هذه الثقة التي تعد الدليل القاطع على صدق الأحكام الصادرة عن هذا الناقد , لأن صاحب هذه الأحكام إنسان لا يحيد عن الحق , فهو يتقبله حين تقوم الحجة عليه , ويدافع عنه حين تتضح معالمه , وهو ليس من عادته الانقياد للشبهة , أو الاحتيال على الخصم قصد تضليله , أو إخفاء الحقيقة عنه , إنما هو يكشف كل جوانب

حجته وموقفه لتتضح أمام الخصم , لأن وضوحها أمامه يجعلـــه يناقشـــها مناقشة المتبصر فتكون هذه المناقشة سبيلا إلى كشف الخطإ أو ســـبيلا إلى إلزام الخصم بها حين يتضح بالبرهان القاطع صدق ماذهب الناقد إليه , وبهذا يتعاون الخصوم في سبيل الوصول إلى الحقيقة , فيتحول النقد إلى عملية بناء, الهدف منها البحث عن اليقين , وليس البحث عن الشـــهرة , والاعتـــداد بالنفس , والانتقاص من الخصم , فتصبح المخاصمة عملية تكامل , والنقـــد عملية إيجابية فعالة في حياة الأفراد والمجتمعات .

إن اكتساب الناقد ثقة الناس يجعل المخاصمة أمرا لا يقبل عليـــه إلا كل من تيقن من نفسه المقدرة على النقد والمناظرة , وكل من وجد الحقيقـــة في غير ما ذهب إليه الناقد السابق , مما يحمي ساحة النقد من أن يدخلـــها كل من دب لأن في دخول هؤلاء إخلال بموازين النقد , فيصبح النقد بعـــد أن كان بناءا وظلما بعد أن كان عدلا , ومجاملة بعد أن كان إحقاقا للحـــق , وبهذا يفقد رسالته في الوجود .

5- الحكـــم :

[illegible] هو خلاصة لتداخل العناصر السابقة وتقاطعـــها , وهـــو [illegible] إليها كل نقد , أو محاكمة , لأن فيه يكون القول الفصـــل [illegible] متنازعين , والجواب الموضح للغامض والمبهم من الأمور , ومن البديهي ان الحكم لا يتخذ شكلا واحدا ثابتا , بل هو يتغير ويتحول بتغير القضايـــا المطروحة , وبتغير المرجعية المعتمدة في ذلك , وقد مر بنا أثناء الحديث عـــن القضية رأي الجرجاني في تغير الحكم بتغير نوع القضية المطروحة للمباحثـــة كما أن تنوع المرجعية يؤثر على نوع الحكم , فاعتماد الذوق الشـــخصي

يصدر عنه حكم غير معلل , وينتج عنه نقد انطباعي « لا يهتم فيه النـــاقد بتحليل الأثر الأدبي »[32] . فطبيعة الحكم من هنا هي المحددة لطبيعة النقـــد والمبينة لخصائصه , ومقدار قربه من الحقيقة الفنية , وإدراك جماليات النـــص وعناصر الإبداع و الخلق فيه , والحكم النقدي تقف أمام إتمامه مجموعة مـــن العوائق التي تؤثر على خصائصه , ومن أهم العوائق التي تقـــف في طريـــق إصدار أي حكم نقدي نجد ما يأتي :

أ- العصبية :

تعد من أكثر العوائق خطرا على مسيرة الحكم النقدي لأنها « ربمـــا كدرت صفو الطبع , وفلت حد الذهن , ولبست العلم بالشك , وحسنت للمنصف الميل , ومتى رسخت صورة ذلك الشيء بغير صورته وحالت بـــين تأمله , وتخطت به الإحسان الظاهر إلى الغيب الغامض،وما ملكت العصبيـــة قلبا فتركت فيه للتثبت موضعا,أو أبقت منه للإنصاب نصيبا » (ص414).

إن هذا النص على إيجازه ليقدم لنا صورة جامعة لأثر العصبية علـــى الإنسان , وعلى يصدر عنه من سلوكات وأحكام فهي تقف حاجزا بـــين الإنسان والحقيقة , بل تصل إلى حد إعطاء صورة مناقضة لهاته الحقيقة.

إن العصبية تشوة فطرة الإنسان التي فطره الله عليها , فتقد الانسـان عفوية الذوق الذي يعد مفتاحا لكل عملية نقدية , والخطـــوة الأولى الـــتي يخطوها الناقد نحو الحكم والنقد , ثم إن العصبية تكبت في الإنســـان كـــل قدراته العقلية التي على أساسها يبني عمله في تحليل الأعمال الأدبية وتفهمـــها وتفسيرها , فيتحول اليقين إلى شك , ويصبح الانسان حائرا لا يرى ثابتا في القيم يعتمده أو رسوخا في الأحكام يقتدي به , بل كل ما هناك شـــكوك

وظنون تورث صاحبها الحيرة والتيه , اللذان ينتج عنهما إرهاق للإنســـان يجعله يركن لأي شيء دون السؤال عن صحته وسلامة الأخذ به , ذلـك أن القيم لم يعد لها مكان في نظر هذا المتعصب ومن هنا يتولد عنده الميل المتحيز , لا للحق بل للهوى , لأن النفس إذا تجردت من قوة العقل الحاكم ونزعـة العدل المنصف , جرت صاحبها إلى هاوية الشهوات , والنزعـات الذاتيـة النفعية المغرقة في الأنانية , وحب الذات , وهذه المرحلة هي الخطـوة الأولى للعصبية وهي التي تشل في الناقد ملكة الحكم الصحيح , وتبعد عن النـاقد فكرة الإنصاف لتحل محلها الأهواء والنزعات الذاتية .

ثم تأتي الخطوة الثانية للعصبية وهي خطوة إيجاد قيم جديدة فالنـاقد الذي فقد اليقين أول أمره , فسار وراء أهوائه لا يظل طويلا في فوضى مـن أمره , بل وجب عليه أن يؤصل حياته الجديدة وأن يضع لها الأسس الـتي ترتكز عليها , وتسير وفقها , فتتحول الهواجس الذاتية إلى قواعد يضفـي صاحبها عليها طابع الموضوعية والتعميم , هي المقياس الوحيد للحكم على العالم , ومن أجل إثبات صحتها نجد صاحب العصبيـة يجـهد نفسـه في الكشف عن الحجج التي يقيم أحكامه عليها ' فهو إذا ما حكم على شـاعر بأنه ساقط اعمته العصبية عن الحسنات , وإن قام الدليل القاطع على كثرها إنما نراه يبحث عن عيوب الشاعر وإظهارها وتهويل أمرهـا , حـتى وإن كانت قليلة نادرة , فهذا النوع من النقاد وإن وقف أمام حائط أبيـض لا يهمه البياض الناصع الشامل لكل الحائط , بل همه الوحيد هو التركيز علـى تلك النقطة السوداء الضئيلة التي يعثر عليها في زاوية من زوايا الحائط .

إن العصبية على العموم تنزع من صاحبها شيئين لا تقوم بدونهما لـه قائمة في النقد , وهما : التثبت والإنصاف , لأن التثبـت يجعلنـا نراجـع أحكامنا قبل إصدارها " كما يجعلنا نقلب الأمور على أكـثر مـن وجـه ونعرض البراهين والحجج على محك الامتحان والتجربة , وهذا ما تنادي بـه المناهج العلمية الحديثة" التي ترى بأن صحة الفرضيات يحكم عليها بصحـة التجربة , فكل فرضية أثبتت التجربة صدقها وصحتها أصبحت نظرية , أمـا إذا ما لم تؤيدها التجارب حذفت وأبعدت من مجال البحث والدراسة .

وأما الانصاف فهو أصل العدل , وقد كررنا في أكثر من موضـع فكرة إلحاح الجرجاني على العدل واعتباره الهدف والأصل في كل عمليـة نقدية وسنعود لذلك بالتفصيل حين تحديد وظائف النقد , وهكذا اتضـح لنا أن على الناقد اجتناب كل ما من شأنه أن يوقعه في العصبية , وذلك بـأن لا يسلم بشيء , إلا بعد أن تقوم الحجة القاطعة على صدقـه , وبعـد أن يمتحنه الناقد ويمتحن نفسه أيضا , لأن الانسان محدود القـدرات يقـع في الكثير من الأخطاء التي تأتيه من الأوهام المتولدة عن حواسه وبعض معارفـه وعلى الناقد أن يتجه إلى القضية التي يريد درسها , وفهمها بعقله بعـد ان تكون نفسه قد أعجبت بها , ثم يتجنب الناقد بعد ذلك الجـزم في الحكـم وتعميمه والتمسك المطلق به , وبخاصة أن مادة الأدب تختلف عن أي مـادة أخرى توضع تحت البحث , حيث أن الأدب لا يكتفـي فيـه بالعينـات للحكم, بل تحتاج إلى تصفح النصوص كلها , والحكم على كـل واحـدة منها حكما خاصا به , ثم ينظر في الأحكام الجزئية لاستخراج حكم يكـون أقرب إلى الحكم العام .

ب – الأحكام المسبقة :

وهي عائق آخر يقف بالناقد دون إصدار الحكم الذي يكون أقـرب إلى الصحة , وهذا العائق يمكن عده وجها من وجوه العصبيـــة , ومظـــهرا لغفلة الناقد وتسليمه بالأمور المسبقة على أنها حقائق صادقة , بل مقدســـة ويمنع مسها , أو الشك فيها , وهذا ما أوقع الكثير من النقـــاد في خطـإ التقديس الذي أصبغوه على القدماء , فركبوا لأجل ذلـــك كـــل صعـــب وتكلفوا الأمور أشد تكلف , وكان «الباعث عليها شدة إعظـــام المتقـــدم والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد وألفته النفس » (ص10).

فالاعتقاد السابق هو الذي يسيرنا حين نريد إصدار الحكم وتأويلـــه فنحن عندما نعلم بأن هذا النص انتمى إلى هذا العصر أو لعصر آخـــر مـــن عصور الأدب استرجعنا كل ما نعرفه عن العصر وما نحفظه مـــن أحكـــام مسبقة فنتكلف البحث عنها في النص , وتأويل ما شذ عنها تأويلا يجعـــل النص صورة مطابقة لحكمنا المسبق , واعتقادنا الراسخ , لهذا وجدنا كثـــيرا من النقاد المتعصبين للقديم يراجعون أحكامهم التي يصدرونها على أشـــعار بعض المحدثين حالما يعرفون قائلها , فالناقد من هؤلاء يرفع النص أول الأمـــر إلى درجة من الجودة والاستحسان حتى إذا ظهر قائله , وأنه من المحدثـــين «كذب نفسه ونقض قوله , ورأى تلك الغضاضة , أهون محمـــلا وأقـــل مرزأة من تسليم فضيلة المحدث والإقـــرار بالإحســـان لمولـــد » (ص50). فاجتمع لهذا السلوك عيب الخضوع للأحكام المسبقة وعيب التعصب لها .

إن الناقد الحقيقي محكوم عليه بأن لا يسلم لحكم , أوفكرة حـــتى يتيقن من صحتها , فكل الأحكام والأفكا[illegible]ة حتى تثبت براءتها , وهذه

العملية ليست بالسهلة لأن من الأحكام والأفكار ما أصبح جزءا من حياتنـا اليومية نقوم به عن غير وعي وهذا يصعب الأمر , ويجعلنا نتســـاءل عـــن مقدار الجهد الذي يجب على الباحث بذله لكشف هذه الأحكام المترســـخة فينا , والمترسبة في أعماقنا .

ج–محدودية القدرة الإنسانية :

وهذا العائق نابع من طبيعة الإنسان التي جبل عليها , فالإنسان قـــد لا يتعصب ولا يسلم لحكم مسبق بالصحة حتى يثبت لـــه ذلـــك بـــالدليل والامتحان ، ولكن مع هذا تبقى طاقة الإنسان محدودة , ومقدرته قـــاصرة على الوصول به إلى نهاية الطريق , وتبلغ به الحقيقـــة الصافيـــة والكاملـــة والحقيقة التي يملكها الإنسان إنما تتولد « انقيادا للظن واستنامة إلى ما يغلب على النفس ,فأما اليقين الثقة , والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن أدعيه ولـــو ادعيته لوجـــب ألا تقبله» (ص160).

فالجرجاني يعترف بأن الأحكام التي تصدر عنه – وهـــي نموذجـــا يمكن تعميمه على كل الأحكام – ما هي إلا تغليب للظن , لأن الإنســـان لا يستطيع أن يبقى معلقا إلى غير نهاية , بل هو يغلـــب بعـــض العنـــاصر أو الجوانب , فيأتي تفسيره هنا مقاربا للحقيقة وليست الحقيقة نفســـها , لـــذا فالحكم قابل للمناقشة والتغيير , وليس من العلم والعقل التشبث به .

ثالثا : وظيفة النقد :

أشرنا في أكثر من موضع في هذا البحث إلى أن الوظيفة الأساســـية للنقد والناقد عندالجرجاني هي إحقاق العدل والإنصاف , وهناك إلى جـــانب

هذه الوظيفة الأساسية وظيفتان ثانويتان هما : تفســـير الأعمـــال الأدبيـــة وتوجيه الذوق .

أ-العدل : يقول الجرجاني : « لكن ما سمعتني أشترط في صدر هذه الرسالة أنه يحظر إلا اتباع الحق وتحري العدل والحكم به لي أو علـــي » (ص20). فالشرط الذي اشترطه الجرجاني على نفسه هو اتباع الحق , وإحقاق العـــدل مهما كانت نتيجة ذلك , أكانت له أم عليه , لأن الحق هو الغاية والهـــدف والعدل عند الجرجاني ينبني على عنصرين هامين هما :الانتصار والاعتـــذار. « وكما أن الانتصار جانب من العدل لا يسده الاعتذار فكذلك جانب هـــو أولى به من الانتصار , ومن لم يفرق بينهما وقفت به الملامة بـــين تفريـــط المقصر وإسراف المفرط » (ص3-4).

فالانتصار لأديب ليس إلا جزءا من العـــدل , لأن فيـــه استجابة لدافع النسب القائم بين أهل الآداب والعلوم , فالأديب الذي يناســـبنا هـــو بمثابة الحرمة التي يبذل كل شيء في الدفاع عنها , وحفظ عندهـــا مـــن أن ينتهك وحقها أن يضيع , لأن كرامة الإنسان وعزته من كرامة أهله وعـــزة نسبه فالتخلي عن الحرمات هو ظلم لها , وإسقاط لحقها علينا في الانتصـــار لها والدفاع عنها وحمايتها , لكن الانتصار لها لا يكون على حساب العـــدل أو بالعدول عن الحق , إنما بإقرارهما معا , فنحن لا نسير وفق الفهم الجـــاهلي للمثل " أنصر أخاك ظالما أو مظلوما " وذلك بأن يكون موقفا واحدا في كلا الأمرين بل يجب أن نسلك معه مسلك الإسلام الـــذي يدعـــو إلى نصـــرة المظلوم بدفع الظلم عنه , ونصرة الظالم بمنعه من الظلم , وإرشاده إلى الطريق المستقيم فنحن عندما نرشد نعترف بالخطإ , ونتنكر له , وهذا الإرشاد هـــو

ما يقابله الاعتذار عند الجرجاجي , فالاعتذار هو وجه من الإصلاح نحـــاول به إدراك الأمور في مبدئها , وذلك بتخريجها مخرجا مقبولا , وتوجيهـــها إلى حظيرو العدل , فإن عجزنا بعد ذلك قلنا بالخطإ , واعترفنا به دون أن يكون في الاعتراف منقصة لصاحب الخطإ , إذ« أي الرجال مهذب»(ص4).

وبمعرفة حدي العدل فإن أحكامنا تصبح أكثقر اعتدالا , وتوســـطا بين تفريط المفصر الذي لا ينتصر لحرمته , ولا يدافع عنها فينتهك عرضـــها ويضيع حقها بين عدو ظالم وحام خاذل , كما أن التوســـط يمنعنـــا مـــن إسراف المفرط في أحكامه , وتعصبه حتى يحيد عن الطريق ، والعدل عنـــد الجرجاني يتضح في عدة مواقف ومظاهر منها :

- عدم الإسراع إلى السيئة قبل الحسنة .
- معاملة كل الشعراء بقاعدة واحدة , فما رفض عنـــد واحد رفض عند غيره ، والعكس كذلك .
- السماع إلى حجج الخصوم .
- عدم إلزامية الحكم للجميع , كونه نسبيا .

وقد شرحنا هذه العناصر فيما سبق من البحث .

أ- التفسير :

وقد وردت لهذه الوظيفة إشارة واحدة , حين يقول الجرجاني : «فإنني لو شرعت في تبيين كل ما يشكل منه على الشادي , والمتوســـط و على الطبقة الأولى من أهل الأدب لاحتجت إلى تفسير الديـــوان بأســـره فإن اقتصرت فعلى معظمه وأكثره » (ص434).

وهذه الوظيفة كما يظهر من سياق النص تعليمية , القصـــد منـــها توضيح المسائل المشكلة من الشعر والأدب , وهذا التفسير يتابع فيه المفســـر درجة المتلقي , ومرتبته في سلم التحصيل , ذلك ان لكل طبقة من الطـــلاب مشاكلها التي تثيرها حول الشعر , ولذا فعمل المفسر يطول أو يقصر بحســـب المتلقي , فهو يطول عند المبتدئ الذي يحتاج التوضيـــح المفصـــل والشـــرح المطول لأكثر الديوان أو كله , اما أهل الطبقة الأولى فإن المسائل تقل عندهم ولا تقتصر إلا على الإشكالات المعقدة التي تكون بابا للمناقشة والاختـــلاف وإبداء الرأي , فيكون للمفسر هنا دور المناقش والمنظـــر , لا دور الملقـــن المدرس , وأمام قلة الإشارات إلى هاته الوظيفة – من حيث التنظير لهـــا – لا نستطيع أن نعطي صورة مفـــصلة عنها .

ج– توجيه الذوق الجماعي :

وهذه الوظيفة بدورها لم تقع الإشارة إليها إلا مرة واحـــدة أثنـــاء الحديث عن الرواة ومواقفهم من الشعر المحدث , يقول الجرجاني في معـــرض حديثه عن أبي رياش القيسي :

« وكان معروفا بالتحامل على هؤلاء والغض من أبي تمام والبحتري خاصة , حتى أن نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة في وقته لقلـــة الرغبـــة فيهما»(ص51).

فهذه الإشارة على الرغم من كونها يتيمة في الكتاب تكشف لنـــا جانبا واسعامن تاريخنا الأدبي , ولم يدرس بعد , ولم تكشف كنوزه , فـــهو يشير إلى صناعة الكتب , وما يتحكم فيها من عوامل ؟ وعلى أي الكتـــب كان إقبال الناس ؟ وعلى أ يها كان إحجامهم ؟ وهذا طبعا في عصر معين

هو العصر العباسي الأول , ومكان محدد هو البصرة , وكل هـــذه المسائل تدخل ضمن مجال علم الإجتماع الأدبي الذي يعـــد مـــن الفـــروع الحديثة في الدراسات الإنسانية والنقدية , وهو ميدان لم نستفد منـــهبعد في دراسة التراث .

إن ما يهمنا في هذه الإشارة هو أرادها لوظيفة من وظائف النقد ألا وهي : وظيفة توجيه الذوق العام , مما يؤكد على أن العملية النقدية ليســـت في مجملها فرديـــة

– وإن كان الناقد فردا – تخص الناقد أو الأديب أو العمل المنقود , بل هي ظاهرة اجتماعية تتعدى حدود الموقف الشخصي إلى الموقف الجماعي وهذا ما يجعل من النقد عملية خطيرة , ومهمة في الوقت نفسه , خطـــيرة لأن أي انحراف يقع من الناقد يكون له نتائجه الاجتماعية التي من مظاهرها عـــدم الاقبال على كتب معينة , مما يكون له انعكاس على الجـــانب الاقتصـــادي كما أن النقد عملية مهمة لأننا حين نحسن استغلالها تضمـــن للمجتمـــع تكوين ذوق سليم , وإدراك جمالي سليم يكون له انعكاســـه علـــى بـــاقي المجالات الحياتية في المسكن , والملبس , والمطعم , والشارع ...

هوامـــش

(1)ـ (2) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ستاينلي هايمن ، ترجمة الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد يونس نجم ،دار الثقافة ، بيروت ، 1981 ،ج1 ، ص: 19

(3) طبيعة الحياة : فرنسيس كريك ، ترجمة الدكتور أحمد مستجير ،مراجعة الدكتـــور عبد الحافظ حلمي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عالم المعرفـــة 125 ، ماي 1988 ، ص : 29.

(4) مبادئ علم النفس العام ،الدكتور يوسف مراد،دار المعارف،مصر،دت ، ص:236

(5) فن البحث العلمي بغردج :ترجمة زكريا فهمي ، مراجعة : الدكتزر أحمد مصطفى أحمد ، دار اقرأ ، لبنان ، ط 4 ، 1983 ، ص: 13.

(6) مبادئ علم النفس العام : ص :13.

(7) المصدر السابق : ص : 14 .

(8) مرض القلق : الدكتور دفيد-ف-شيمان ترجمة : عزت شعلان , مراجعة الدكتور عبد العزيز سلامة , المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، عالم المعرفـة 12 أفريل ،1986 ، ص : 101.

(9)ـ(10) معالم التحليل النفسي،سيمجند فرويد،ترجمة الدكتور عثمان نجاتي، ديـــوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ط5،دت، ص :35

(11)ـالمصدر السابق : ص36.

(12) –L'UNITE DE L'HOMME : POUR UNE - ANTHEROPOLOGIE FONDAMZENTALE E. MORIN , M. PLATTELI-PAL MARINI EDITION DU SEUIL POINTS 93-1974.

(13) الأنثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية ، محمد الجوهري، دار المعـــارف ، مصر ، ط ، 3 ، 1982 ، ص : 59 .

(14) المصدر السابق : ص : 102.

(15)ـ (16) إدوارد سعيد : العالم والنص والناقد (عرض كتاب) ، فريـــال جبـــوري غزول، مجلة فصول ، المجلد الرابع، العدد الأول . (10-11-12)، 1983 ، ص : 190.

(17) النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، دار نهضة مصر ،1973 ، ص:161

(18) نظرية الشعر العربي من خلال نقد نتبي في القرن الرابع الهجري ، محـــي الديـــن صبحي الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط1 ، 1981 ، ص :40.

(19) المصدر السابق : ص :50.

(20) المصدر السابق : نقلا عن : الرسالة الموضحة للحاتمي ، ص ، 16.

(21) تاريخ النقد العربي عند العرب ، إحسان عباس ، ص : 252.

(22) النقد المنهجي عند العرب : ص: 167.

(23) المصدر نفسه

(24) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ،ص : 318.

(25) المصدر نفسه، ص : 318

(26)ـ المصدر نفسه: ص : 318.

(27)ـ البديع : عبد الله بن المعتز , تحقيق : إغناطيوس كراتشوفسكي , دار المســـيرة ،بيروت ، ط3 ، 1982 ص: 1.

(28) مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع : توفيق الزيدي , ســـراس للنشر ، تونس ،1985 ، ص: 13.

(29)ـ المصدر السابق :ص:41.

(30)-تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابـــع الهجـــري: إبراهيم طه , دار الحكمة ،بيروت،دت , دط ، ص: 59

(31)-معجم المصطلحات الغربية في اللغة والأدب : مجدي وهبة وكمـــال المـــهندس , مكتبة لبنان ،بيروت ، ط2 1984 ص: 418.

* **ملاحظة** : بالنظر إلى كثرة الإحالات على كتاب الوساطة فقد ذكرت الصفحـــة أمام الإحالة ومتن البحث :

- الوساطة بين المتنبي وخصومه , علي بن عبد العزيز الجرجاني , تحقيق محمـــد أبـــو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي,مطبعة عيسى حلبي وشركائه , مصر ،دت, د.ط.

النص بين المفهوم والقراءة

الأستاذ: لبوخ بوجملين
جامعة ورقلـــة -الجزائر

إنني في هذه المداخلة الموجـــزة لم أتعمد الوقوف عند حدود المفهوم مـــن حيث المصطلح بل تعديته إلى إعطـــاء قيمة للنص الأدبي من خلال القـــراءة كمقاربة نقدية تستمد شرعيتها مـــن التأويل .ولا يتسنى لنا معرفة النـــص الأدبي كمعطى معرفي إلا من خـــلال المعرفة الواعية بصلابة .

هذا البناء الذي يستجير باللغة ويستمد دلائليتـــه مـــن البعـــد الثقـــافي والاجتماعي و الحضاري و لا أدعي أنني سأقول كل شيئ عن النـــص في هذه المداخلة كما أنني لا أود ـــ من خلال هذا التقديم ـــ أن أضع القـــارئ المستمع (في رواق ضيق تصنعه المصطلحات و النزعة اللسانية الصارمة بقـــدر ما أريد أن أفتح مجالا لتعدد المفاهيم وإثراء الخطاب النقدي وسط هذا الكم الهائل من المعطيات الجديدة و المدارس المتعددة بداية من المقولة الانطباعيـــة المشبعة بالذاتية المفرطة وانتهاء بلسانيات النص التي تنشد الأحكام العلميـــة المقيدة .وما أقدمه هو إطلالة مقتضبة .

إن كل نص ينتج لذاته يفعل التأثير و التأثر أي يفعل الالتذاذ المشترك الناجم عن متعة ولوج عالم نقرأه ونعيد كتابته في الآن نفســـه (بالتفســـير